التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

العهد المكي

الجزء الثالث

د. عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار الأندلس الخضراء

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب: ٤٢٣٤٠ - جدة: ٢١٥٤١ - هاتف/فاكس: ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . .

وبعد : فهذا هو الجزء الثالث من أجزاء هذا الكتاب ، وبه يكتمل العهد المكي ، وأحداثه تبدأ من العام العاشر وتنتهي في أوائل العام الرابع عشر من البعثة النبوية .

وهذا الجزء يغلب عليه طابع المواقف الدعوية والأخلاقية ، ويبين ما قاساه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأوائل رضي الله عنهم في سبيل الدعوة الإسلامية .

وقد جعلت مواقف الهجرة النبوية في آخر هذا الجزء ، والهجرة بين العهدين المكي والمدني ، إلا أنها ألصق بالعهد المكي ، لأن العهد المدني يبدأ من وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة النبوية .

ومما ينبغي ملاحظته أن المعجزات النبوية ليست من موضوع هذا الكتاب ، وإنما يتم الكلام على بعضها إذا وردت عرضا في الأخبار المذكورة في الكتاب .

هذا وقد استفدت في هذا الجزء وغيره من التعليقات التي على هامش كتاب « السيرة النبوية لابن هشام » بتحقيق الدكتور محمد خليل هراس رحمه الله تعالى ، وذلك فيما يتعلق ببيان معاني الكلمات في اللغة ، فجزاه الله خيراً . .

١ – تفوق النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة

(شكوى قريش لأبي طالب في مرضه)

إن المبادئ السامية تظل مُثُلاً عالية في عالم الذهن ، حتى يوجد من يمثلها في عالم الواقع ، وكم من إنسان يتصور هذه المبادىء في ذهنه ويتحمس للدفاع عنها في تخيله ، ويراها هي الحقّ كلّ الحق حتى إذا تحول إلى عالم الواقع جبن عن الدفاع عنها وضعف عن تمثيلها بنفسه ، وفضّل مداراة الناس بما هم عليه من باطل على مجابهتهم بما هو عليه من الحق .

أما رسول الله ﷺ فهو الإمام الأعظم والمثل العالي في تمثيل الحق والدفاع عنه ومجابهة الباطل وأهله وإن اغتروا بكثرتهم وقوتهم المادية .

يبين ذلك ما رواه الإمام الطبري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول ، فلو بعثت إليه فنهيته » .

ومن هذا نعرف تفاني أهل الباطل في الدفاع عن باطلهم واغتنامهم الفرص المناسبة للهجوم على المعتقدات التي يرون أنها تهدد وجود باطلهم ، الذي يتوقف وجودهم عليه ، وتتمثل زعامتهم في علو رايته وقيام أمره ، فقد اغتنم هؤلاء الكفار فرصة مرض أبي طالب الذي كان يقف سدّاً منيعاً بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والإنسان حال المرض يكون ضعيف الجسم فتضعف إرادته وتقل مقاومته ، فأرادوا أن يحصلوا منه على موقف يَهُون فيه عن نصرة ابن أخيه ﷺ فيعتزَّ جانبهم ويكسبوا الجولة الأخيرة لصالحهم .

« قال : فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل ، قال : فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرقَّ له عليه ، فوثب فجلس في ذلك المجلس ، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب » .

وهكذا يبدو أهل الباطل شَرِسين في منافسة أهل الحق ومحادَّتهم ، ومحاولة الحيلولة بينهم وبين منابر الهداية ووسائل البلاغ التي يستطيعون منها أن يبلِّغوا دعوتهم بشكل مؤثر ، كما أنهم يحاولون جاهدين أن يضعفوا من شخصية أهل الحق بأي شكل من الأشكال حتى ينزووا بأنفسهم بعيداً عن الأنظار ويجبنوا عن تمثيل الحق والدفاع عنه .

« قال : فقال له أبو طالب : أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ؟ قال : فأكثروا عليه القول » .

وهذا موقف ما كانوا ليظفروا به من أبي طالب لولا ضعفه حال المرض ، فقد كان قبل ذلك يجابههم ، ولا يخفى عليه ما كان يصدر من رسول الله ﷺ من التنديد بآلهتهم وانتقاد ماهم عليه من مظاهر الشرك المختلفة .

« قال : وتكلم رسول الله ﷺ فقال : ياعم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية » .

وهنا تبدو الحكمة العالية في الدعوة ، والأسلوب البارع في إثارة السامعين للإهتمام ، وذلك في جمع المقاصد العظيمة التي بها قوام الحياة وما بعد الممات في كلمة واحدة ، وترتيب الهيمنة في الأرض على قولها .

وهل كان زعماء قريش يحلمون في يوم من الأيام بأن يكونوا سادة العرب وأن تخضع لهم دول العجم بأجمعها فتدفع لهم الجزية ؟ .

إنه لحلم بعيد المنال يفزع الإنسان من مجرد تصوره في الذهن إذا كان خالياً من الإيمان بالله تعالى واليقين بوعده الذي لايتخلف ، ولذلك فزع زعماء قريش .

« قال : ففزعوا لكلمته ولقوله : فقال القوم : كلمة واحدة ؟ نعم وأبيك عشرًا ، فقالوا : وما هي ؟ وقال أبو طالب : وأي كلمة هي ياابن أخي ؟ » .

لقد ظن القوم أن حصر النبي ﷺ دعوته في كلمة واحدة يعني أنه بدأ بالتنازل لهم عن بعض ما كان يدعو إليه وأنه سيوافقهم في بعض مطالبهم ، فاستخفُّوا بطلبه وأبدوا استعدادهم لأكثر مما طلب منهم .

« قال : قال ﷺ : لا إله إلا الله » .

إنها كلمة واحدة ، ولكنها تعني مجمل منهج كامل يرسم للمسلم طريق الاستقامة في هذه الحياة ، الذي يتضمن التخلي الكامل عن جميع المقدسات التي تعارف عليها البشر على غير هداية الله وما يترتب على ذلك من تشريعات ونظم ، ثم التحلي بعبادة الله تعالى وحده وما يترتب على ذلك من إخضاع جميع شئون الحياة لهذه العبادة .

ولقد كان المشركون يفهمون جيداً مدلول كلمة التوحيد ، ويقدِّرون مسئولية النطق بها ، ولذلك فزعوا منها .

« قال : فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون ﴿ **أجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عُجَاب** ﴾ قال : ونزلت من هذا الموضع إلى قوله ﴿ **بل لَّمَّا يذوقوا عذاب** ﴾ (١) (٢) .

---

(١) يعني قوله تعالى : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ، أؤُنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب ﴾ .

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١٢٥ .

وأخرجه الإمام أحمد ، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر - مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٣/ ٣١٤ رقم ٢٠٠٨ .

وأخرجه الإمام الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح - جامع الترمذي ، كتاب التفسير (تحفة الأحوذي ٨/ ٩٩) .

وأخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٤٣٢ - .

لقد كان زعماء المشركين يفهمون أن هذه الكلمة هدم لموروثاتهم التي سادوا الناس بها ، ولقد كانوا يفهمون أن آلهتهم التي يقدسونها لاتُحل لهم ولاتحرم عليهم شيئًا ، وإنما هم الذي يحلون للناس ويحرمون عليهم بأهوائهم باسم هذه الآلهة . فهذه الكلمة تحول بينهم وبين تقديس ميراث آبائهم ، وتحول بينهم وبين اتباع اهوائهم وتحول بينهم وبين استعباد المستضعفين من البشر الذين يرونهم دونهم في الحياة .

ولقد كان النبي ﷺ صريحًا معهم قوياً في مجابهتهم فلم يداهنهم رغم محاولاتهم المتكررة ، ولم تَلنْ له معهم قناة رغم محاولتهم إضعاف موقفه وتكالبهم عليه وهو يحضر ندواتهم وحده .

وإنه ﷺ ليضرب المثل عالياً لأمته في معاملة الكافرين في مختلف الأحوال حسب ما تقتضيه مصلحة الدعوة ، وإنه لمن الواجب على الدعاة أن يدرسوا سيرته بتعمق وفقه حتى يتأسوا به في تعامله مع الناس، وفي دعوته حتى لايسيروا في دعوتهم على جهالة وانحراف .

وهكذا رأينا أن النبي ﷺ قد وعد قومه إذا هم أسلموا بالسيادة على العرب والعجم ، إضافة إلى سعادة الآخرة التي تتمثل بالفوز برضوان الله تعالى والظفر بالجنة والنجاة من النار ، ومع ذلك فإنهم ظلوا متمسكين بخرافات وأوهام تتيح لهم السيادة على مكة وحدها ، ولا يضمنون بها سعادة بعد الموت .

فما أنقص عقولهم ، وما أضعف تفكيرهم حينما قصروا اهتمامهم

على الحياة الدنيا ولم يقبلوا دعوة الإصلاح التي تتيح لهم مجد الدنيا والآخرة !! .

هذا وإن الذين ورثوا هذا الدين جيلاً عن جيل وأصبحت أنظارهم مقصورة على السيادة على بلدانهم وليس في حسهم نقلُ هذا الدين إلى العالم والسيادة به على الأرض ، وليس حاضراً في وجدانهم مستقبلهم الأخروي ، وقد عُمرت أفكارهم بالحفاظ على المستوى الأعلى من متاع الدنيا ولو في ظل هيمنة الأعداء عليهم . . إن هؤلاء لايختلفون كثيراً عن الذين حاورهم رسول الله ﷺ في هذا الخبر وأمثاله من ناحية الاقتصار على الأهداف القريبة التي تشغل بالهم ، وقصور تفكيرهم عن الأهداف السامية التي نقلهم إليها الإسلام ، وإن كانوا يختلفون عنهم بالإيمان بالإسلام ، ومعاداة أولئك لهذا الدين الحنيف .

* * *

٢ - صبر جميل وعزيمة نافذة

(وفاة الحاميين : خديجة وأبي طالب)

تقدم لنا خبر مرض أبي طالب وما كان من زعماء قريش من محاولة استمالته إلى صفهم ليتخذ موقفًا يوهن فيه من دعوة الإسلام وما كان من موقف النبي ﷺ في الثبات والحكمة في الدعوة .

وقد توفي أبو طالب في مرضه ذلك ، وذلك في العام العاشر للبعثة ففقد النبي ﷺ بموته ناصرًا مخلصًا وحاميًا قويًا .

ويشاء الله تعالى أن تموت في نفس هذا العام خديجة بنت خويلد أم المؤمنين الوفية الصبارة رضي الله عنها فيجتمع على رسول الله ﷺ بموتهما مصيبتان كبيرتان ، فلقد كان كل واحد منهما يقدم له جانبًا من الحماية والتأييد ، كان أبو طالب يحميه من الأعادي ، ويهددهم أحياناً بخوض معامع القتال دونه إذا لزم الأمر ، وكانت خديجة تحوطه بعطفها وحنانها إذا عاد إلى البيت وتمْسح من نفسه آثار الصدام والصراع الذي يجري بينه وبين المناوئين لدعوته ، وتَبُثُّ له سمعة واسعة في مجتمع النساء ، ببيان أخلاقه العالية ومعاملته الكريمة ، وصدق دعوته وسمو أهدافه .

ولاشك أن النساء لهن تأثير كبير على الرجال ، فإذا وجد الواحد

منهم في بيته من يلومه على عداوة الرسول ﷺ ويدافع عنه فإن ذلك يكسر مما في نفسه من تحديه ومحاولة إيذائه .

يقول محمد بن إسحاق رحمه الله في بيان وفاة الحاميين : خديجة وأبي طالب وما حصل على النبي ﷺ من المصائب بفقدهما :

ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب : بهُلْك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها ، ويهلك عمه أبي طالب وكان له عضداً وحرزاً في أمره ، ومنعة وناصراً على قومه ، وذلك قبل مُهَاجَره إلى المدينة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابًا .

قال ابن إسحاق : فحدثني هشام بن عروة عن أبيه بن الزبير ، قال : لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب ، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله ﷺ يقول لها : لاتبكي يابنية . فإن الله مانع أباك . قال : ويقول بين ذلك : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩ .

ولكن مع فقد رُكْنَي الحماية القويين فإن النبي ﷺ لم يضعف أمام أعدائه الذين كشَّروا له عن أنيابهم ، ولم يتراجع عن دعوته قيد أنملة ، بل استمر في دعوته داخل مكة وخارجها .

ولقد ركز دعوته ﷺ خارج مكة حيث كان يبحث في قبائل العرب عن ناصر قوي يتكفل بحماية الدعوة والمؤمنين بها ، وسيأتي في المواقف التالية بيان ما قام به ﷺ من جهود مكثفة في اللقاء بزعماء القبائل .

* * *

٣ – مواقف وعبر في دعوة أهل الطائف

بعدما نصر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين على أعدائهم من زعماء مكة ، واضطر هؤلاء الأعداء إلى فك الحصار الاقتصادي والاجتماعي الذي فرضوه على المسلمين حصل شيء من الانفراج للدعوة حيث كسب المسلمون أنصاراً من الكفار غير بني هاشم وبني المطلب ، ولكن ما أن تم ذلك حتى قدر الله تعالى وقوع مصيبتين كبيرتين على رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وهما وفاة عمه أبي طالب وخديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وذلك في العام العاشر من البعثة ، فقوي بذلك موقف الأعداء من المشركين ، وبدؤوا في تدبير المكائد والتخطيط للقضاء على وجود الإسلام في مكة .

عند ذلك فكر النبي ﷺ في البحث عن قبيلة قوية تقوم بحمايته وأتباعه حتى يبلغ رسالة ربه جل وعلا ، ووقع اختياره على قبيلة ثقيف في الطائف .

قال ابن إسحاق رحمه الله : ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده [1] .

---

(١) يعني لم يكن في جماعة من أصحابه ولكن ثبت في روايات أخرى أنه كان معه مولاه زيد بن حارثة ، (وكان ذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من البعثة – طبقات ابن سعد ١/٢١١) .

قال : فحدثني يزيد بنُ زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عَمَدَ إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافُهم وهم إخوة ثلاثة : عبدياليلْ بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير ، وذكر نسبه .

ولم يذكر الثالث وهو مسعود بن عمرو كما جاء في روايات أخرى [١] .

قال : فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله تعالى وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال : أحدهم : هو يمرط[٢] ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك .

وقال آخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك !

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدًا ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك .

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم - فيما ذكر لي - : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فَيُذْئِرهم [٣] ذلك عليه ، فلم يفعلوا ، بل أغروا

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤١٥ .

(٢) يعني يمزق .

(٣) يعني يهيجهم .

به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه .

ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب ، فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف [1] .

وقد جاء في بعض الروايات أن زيد بن حارثة كان معه ، وكان يصد بعض الحجارة عنه حتى أصيب ببعض الشجاج رضي الله عنه [2] .

في هذا الخبر بيان واضح لاهتمام النبي ﷺ بأمر دعوته فهو لم يقتصر على الدعوة داخل مكة وإنما خرج بها خارج حدودها .

وقد جاء في هذه الرواية أن خروج النبي ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه أبي طالب واشتداد أذى الكفار عليه وعلى أتباعه ، فكان يرجو بذلك أن يجد متنفسًا للدعوة فتقوى وتنتشر .

ولكن زعماء ثقيف ردوا عليه ردًا سيئاً كما جاء في الخبر وآذَوه في بدنه حتى احتمى بأحد البساتين وكان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من زعماء المشركين في مكة .

وكون رسول الله ﷺ يتعرض لمثل هذا النوع من البلاء دليل على علو مكانته عند الله تعالى كماجاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢١١ .

الله عنه قال : « قلت : يارسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه »[١] .

والرسول ﷺ هو القدوة العليا لهذه الأمة ، فإذا تصور الدعاة إلى الله تعالى ما أصابه من الأذى وقوة صبره وتصميمه على مواصلة الدعوة فإنه يهون عليهم ما يصيبهم من الأذى والمكروه في هذه الحياة .

وكون زيد بن حارثة يقي رسول الله ﷺ بنفسه من الحجارة حتى أصيب ببعض الشجاج يدل على أنه قد بذل جهدًا كبيراً في حماية رسول الله ﷺ حيث كان يتلقى الحجارة ببدنه ولم يصل منها إلى رسول الله ﷺ إلا التي وجهوها إلى قدميه .

وهذا موقف من مواقف زيد الكثيرة التي كان جُلُّها في خدمة رسول الله ﷺ وحمايته ، فلا غرابة بعد ذلك في أن يكون هو وابنه أسامةُ من أحب الناس إليه ﷺ وآثرهم عنده .

وكون هؤلاء الزعماء الثلاثة يردون بهذه الردود القاسية دليل على قسوة قلوب الكفار ، واعتزازهم بما يعتقدون من الباطل ، وتكبرهم عن سماع الحق ، وما يحدثه الكفر في قلب صاحبه من إغلاق الفكر عن النظر فيما يدعو إليه الآخرون بعقل رشيد وفكر سديد .

---

(١) سنن ابن ماجه رقم ٤٠٢٣ كتاب الفتن ، سنن الدارمي رقم ٢٧٨٣ ، كتاب الرقائق .

كما أن هذا دليل على ما يتصف به الكفار من الإسفاف في القول في تعاملهم مع دعاة الحق ، وتعمد المبالغة في التحدي لتحطيم معنوية هؤلاء الدعاة .

وإذا كان هذا شأن السادة الذين كانوا في الجاهلية يختارهم قومهم لكمال صفاتهم التي تؤهلهم للسيادة ، فكيف يكون شأن عامة الناس في مجتمعات الجاهلية ؟! .

على أنه مما يجب التنويه به أن تلك القبيلة التي كانت متصلبة في الكفر حتى تأخر إسلامها بعد فتح مكة كانت بعد ذلك من أشد القبائل التزاماً بالإسلام والدفاع عنه ، فقد كانوا من القلائل الذين ثبتوا على إسلامهم وولائهم لدولة الإسلام يوم الردة ، وأمدوا الجهاد الإسلامي بقادة وجنود أكفاء ، ولعل تصلُّبهم في التمسك بعقيدتهم الباطلة في الجاهلية تحوَّل إلى تصلب في التمسك بعقيدة الإسلام بعدما هداهم الله تعالى .

قال ابن إسحاق في سياق هذا الخبر : فلما اطمأنَّ رسول الله ﷺ قال - فيما ذُكر لي - : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملَّكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة

من أن تُنزل بي غضبك أو يَحلَّ عليَّ سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك [1] .

لقد كان النبي ﷺ شديد الحزن على واقع أمته عظيم الأسى على واقع خلّفه وراء ظهره في الطائف وواقع أليم ينتظره وهو قادم إلى مكة ، ولقد أخذ به الهمُّ المتكاثف من ذلك الصدود المتواصل من قومه ومن القبائل التي عرض عليها الإسلام ، وإنا لنلمح ذلك في هذا الدعاء المشهور الذي دعا الله به مُنْصَرفه من الطائف ، حيث اشتكى إلى ربه جل وعلا ضعف قوته ، فهو لايملك القوة التي يجابه بها المعاندين ويزيل بها الطغاة الذين فرضوا الحجر الفكري على الناس وضيقوا مجال الاستجابة للدعوة .

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي » حيث لايستطيع الخروج بواقع الدعوة من المأزق الذي وضعها فيه أعداؤه .

« وهواني على الناس » حيث يتجرأ أعداء الله على السخرية منه والاعتداء على جسده الشريف ، وإنه لعجب أن يوجد في وقت واحد من يسيل دمه ومن يتبرك بدمه ، فليس على وجه الأرض من يعظمه أتباعه ويتبركون به مثله ، ومع ذلك ينتهك أعداؤه من حرماته ما لايُقْدِمون عليه مع خدمهم ومماليكهم .

ثم يستجدي رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء ويعلن ضعفه

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤ .

واضطراره إلى ربه جل وعلا الذي يملك أمره وأمر كل شيء : « يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي » ، فهو سبحانه سند أوليائه المؤمنين ، وتكرار ذكر ربوبية الله تعالى بالتخصيص بعد التعميم لتأكيد أمر اللجوء إلى الله جل وعلا .

ثم يسأل ربه أن يكون معه وأن لا يتخلى عنه وأن لا يكل أمره إلى بعيد يعبس بوجهه له ويترفع عليه كما حصل من أهل الطائف ولا إلى قريب له السيطرة والنفوذ في بلده كالملأ من أهل مكة : « إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى قريب ملَّكته أمري » .

ثم يبين ﷺ أن الشيء الذي امتلك عليه لبَّه وأخذ عليه مشاعره هو أن يحوز على رضوان الله تعالى ، وأن يكون بعيداً عن سخطه وغضبه .. إذا تم له ذلك فلْيُعَاده من شاء أن يعاديه من البشر ، وليعملوا ما شاؤوا في أذيته والكيد له .

غير أن الجمع بين الظفر برضوان الله تعالى والتمتع بعافيته من أذى الناس هو أرفق بالعباد الذين من شأنهم الضعف والافتقار : « إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي » .

وفي هذه الفقرة يتبين عمق توحيد النبي ﷺ ، ومبلغُ تجرده لله جل وعلا ، فهو لم يشعر بهذا الحزن المضني والهمِّ المتواصل ليدرأ عن نفسه الأذى أو ليجلب لنفسه شيئاً من حياة الهدوء والنعيم ، بل هو يستعذب كل هذا الأذى من أجل الله تعالى ، غير أنه مشفق من غضب ربه سبحانه أن يكون قصَّر في أمر من أمور الدعوة من غير أن يشعر فيتعرض لشيء

من غضب مولاه جل وعلا ، فإذا لم يكن صدود الناس وأذيتهم إياه بسبب تقصير حصل منه فإنه لايبالي بما حصل له من الأذى على يد أعدائه لأنه إنما يحتسب ذلك عند ربه جل وعلا .

ويؤكد النبي ﷺ رجاءه بنيل البراءة من سخط الله تعالى وغضبه بهذا التوسل العظيم والالتجاء البليغ « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تُنزل بي غضبك ، أو يَحلَّ عليَّ سخطك لك العتبى حتى ترضى » .

فرضوان الله تعالى إذاً هو الهدف الأعلى عند رسول الله ﷺ ، وهو المطلوب الأعظم الذي تُسَخَّر له كل المطالب ، وإذا كان البلاء من الله تعالى من أجل أن يحل رضاه وينجلي سخطه فحيهلاً بالبلاء ، وهو ساعتئذٍ نعمة ورخاء .

ثم يختم رسول الله ﷺ دعاءه بالكلمة العظيمة التي يقولها وعلَّم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره « ولاحول ولا قوة إلا بك » فلا تحوُّل للمؤمن من حال الشدة إلى حال الرخاء ، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى ، ولا قوة له على مواجهة الشدائد وتحمُّل المكاره إلا بالله جل وعلا .

قال ابن اسحاق رحمه الله في سياق روايته : « فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة ومالقي تحركت له رحمهما فدعوا غلاما لهما نصرانياً يقال له : عداس ، فقالا له : خذ قطفا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكلْ منه .

ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ، ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال : بسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد .

فقال رسول الله ﷺ : ومن أهل أي البلاد أنت ياعداسُ ومادينك ؟ قال : أنا رجل نصراني وأنا رجل من أهل نينوى .

فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى ، فقال له عداس : وما يدريك مايونس بن متى ؟

فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي ، فأكبَّ عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ياعداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟

قال : ياسيدي مافي الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي ، قالا له : ويحك لايصرفَنَّك عن دينك فإن دينك خير من دينه (١) .

هذا وإن تسمية النبي ﷺ قبل الأكل تطبيق لسنة من سنن الإسلام الظاهرة ، وقد كان من بركة ذلك انجذاب رجل نصراني إلى الإسلام .

---

(١) سيرة ابن هشام / ٢/ ٣٥ .

فما أن ذكر رسول الله ﷺ اسم الله تعالى قبل الأكل حتى اهتز كيان ذلك المولى النصراني وجاشت مشاعره فأخبر النبيَّ ﷺ بعجبه من ذلك حيث لا يعرف أهلُ تلك البلاد ذكرَ اسم الله تعالى .

والتسمية قبل الأكل كسائر السنن الظاهرة من أسباب تميز المسلمين على من حولهم من الوثنيين ، وهذا التميز يلفت أنظار الكفار ويدفعهم إلى السؤال عن سبب ذلك ، ثم يقودهم ذلك إلى فهم الدين الإسلامي والانجذاب إليه .

وإن لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيث جهر بتطبيق الإسلام بكل تكاليفه ولم يخش في ذلك لومة لائم .

أما محاولة الاندماج في المجتمعات الوثنية والاستخفاء بمعالم الإسلام الظاهرة ،فإن هذا يحصر انتشار هذا الدين ، إلى جانب أنه يضعف شخصية المسلمين .

وبينما كان رسول الله ﷺ يعاني من ذلك الأذى النفسي والجسماني من صدود الأعداء وإهانتهم إياه إذا به يفاجأ برجل يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه ، لقد شاء الله تعالى أن يحتجب هذا النور الإلهي عن سادة ثقيف وأن يبصره مولى من الموالي كان محل الاحتقار وموئل الذلة والمهانة لدى علْيَتهم .

ولا شك أن عثور النبي ﷺ على رجل يحفظ له حق النبوة ويعظمه بعدما واجهه الأعداء بأشد أنواع القسوة والعنف يعتبر مواسياً له وباعثاً

علي الشعور بعدم خلو البلاد ممن يقدرون دعاة الحق ويحفظون لهم كرامتهم .

ولقد كان يقين عداس بنبوة رسول الله ﷺ قوياً ، حيث كان في اعتقاده أنه سينتصر على اعدائه وأنه لايقف له أحد ، يدل على ذلك موقفه من سيِّدَيه عتبة وشيبة ابني ربيعة لما أرادا الخروج إلى بدر وأمراه بالخروج معهما حيث قال لهما : قتالَ ذلك الرجل الذي رأيت في حائطكما تريدان ؟ فو الله ماتقوم له الجبال ، فقالا : ويحك ياعداس قد سحرك بلسانه [1] .

وهكذا كانت شفافية تفكير ذلك الغلام المملوك وعمق إدراكه لكونه على علم بالكتب السماوية ، في مقابل قساوة قلوب سيديه وأمثالهما من الكفار الذين يحلمون كل أثر للنبي ﷺ في قلوب الناس على السحر .

وخرج سيداه فما رجعا بل قتلا وسحبا مع من سحب من قتلى الكفار إلى قليب بدر ، وكان عداس المحتقر عندهما أعلم منهما بالله تعالى وبسنَنه في خلقه ، وأدرى منهما بعوامل انتصار الأمم وعوامل اندحارها [2] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٥٧٨ .

(٢) هذا الخبر والخبر السابق يدلان على أن عداسا قد أيقن بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن هل دخل في الإسلام ؟ ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمته أن سليمان التيمي ذكر في سيرته أنه قال للنبي ﷺ : « أشهد أنك عبد الله ورسوله » - الإصابة ٢/ ٤٥٩ - وإن ثبت هذا فإنه لم يعلن إسلامه قطعا وإلا لحصل له الإيذاء والتعذيب كما تعرض لذلك الموالي في مكة وقد كان في مكة في العهد المكي ، فربما كان من الأفراد الذين كانوا يكتمون إيمانهم .

وأبلغ من خبر عداس مع النبي ﷺ أن الله جل وعلا صرف نفراً من الجن إلى رسول الله ﷺ وهو في وادي نخلة مرجعه من الطائف فسمعوا قراءته فأسلموا ، كما جاء في رواية ابن إسحاق أنه قال : ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة [١] قام من جوف الليل يصلي ، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جنٍّ أهل نصيبين [٢] ، فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ماسمعوا ، فقص الله تعالى خبرهم عليه ﷺ ، قال الله عز وجل ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضيَ ولَّوا إلى قومهم منذرين ، قالوا ياقومنا إننا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجركم من عذاب أليم** ﴾ [٣] .

وقال تبارك وتعالى ﴿ **قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة [٤] .

(١) هو واد بين مكة والطائف ، قال البكري : موضع على ليلة من مكة وهي التي ينسب إليها بطن نخلة وهي التي ورد فيها الحديث ليلة الجن . - معجم معالم الحجاز ٩/ ٤٢ - .

(٢) نصيبين بفتح النون وكسر الباء مدينة في شمال العراق الذي كان يسمى الجزيرة وتقع على الطريق بين الموصل والشام - معجم البلدان ٥/ ٢٨٨ - .

(٣) سورة الأحقاف ٢٩ - ٣١ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٦ .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن حميد عن سلمة بن الفضل الأبرش عن ابن إسحاق به وذكر مثله [١] .

وأخرج نحوه الإمام البيهقي من حديث الإمام الزهري مرسلاً [٢] .

وأخرج الإمام أحمد خبر خروج النبي ﷺ إلى الطائف مختصرا من حديث خالد العدواني رضي الله عنه [٣] .

وأخرجه الطبراني مختصرا من حديث عبد الله بن جعفر وذكر دعاء النبي ﷺ كاملاً ، ذكره الهيثمي وقال : وفيه ابن إسحاق مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات [٤] .

وماجاء في آخر هذا الخبر من سماع الجن يعتبر تبكيتا لقساة القلوب من الإنس الذين يتكرر عليهم سماع كلام الله تعالى ولايتأثرون به ، بينما سمعه الجن مرةواحدة فأسلموا .

هذا ومن العرض السابق في رواية ابن إسحاق تبين لنا كيف عانى رسول الله ﷺ من المشاقّ في رحلة الطائف الدعوية ، إضافة إلى أن خروجه ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه ذهاباً وإياباً يعتبر بحد ذاته مجهوداً ضخماً وتضحية كبيرة ، حتى لو قوبل مقابلة حسنة ، فكيف

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٤ .

(٢) دلائل النبوة ٢/ ٤١٤ .

(٣) المسند ٤/ ٣٣٥ .

(٤) مجمع الزوائد ٦/ ٣٥ .

إذا اجتمع مع هذا الجهد الكبير والعناء البالغ سوء المقابلة والتعرض للأذى ؟! .

ومما يصور هذه المعاناة ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟

قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشدَّ مالقيت منهم يومَ العَقَبة إذ عرضت نفسي على ابن عبدياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وماردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت ، فناداني ملك الجبال ، فسلَّم عليَّ ثم قال : يامحمد فقال : ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .

فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئاً [(١)] .

وقوله ﷺ « وكان أشدَّ مالقيت منهم يومَ العقبة » يعني أن إصابته على يد أعدائه يوم الطائف أشد من إصابته يوم أحد .

وإننا إذا نظرنا إلى الموضوع من ناحية الإصابة الجسمية فإن إصابته

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٢٣١ ، كتاب بدء الخلق (٦/ ٣١٢) .

في أحد أبلغ ، ولكننا إذا نظرنا من الناحية النفسية فإن إصابته يوم الطائف أبلغ وأشد لأن فيها إرهاقاً كبيراً لنفسه ومعاناةً فكرية شديدة جعلته يستغرق في التفكير من الطائف إلى السيل الكبير كما جاء في الرواية ، ولاشك أن المعاناة النفسية أشدُّ وأقسى من الإصابة الجسمية .

وقوله ﷺ « فانطلقت وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب »[1] يدل على مبلغ الهمِّ الذي أخذ بفكر النبي ﷺ وهو نازل من الطائف ، وإذا نظرنا إلى المسافة بين الطائف وبين قرن الثعالب نجد أنها مسافة طويلة نسبيًا خاصة وأن النبي ﷺ كان يمشي على قدميه كما جاء في رواية الطبراني [2] .

فبأي شيء كان يفكر رسول الله ﷺ ؟ وعلام يدل هذا الاستغراق الطويل في التفكير ؟ .

لعل رسول الله ﷺ كان يفكر في أمر الدعوة إلى هذا الدين .

كيف مر عليه عشر سنوات ولم يستطع نشر الإسلام في مكة بالحجم الذي يتمناه ، ولم يستطع نقل الإسلام إلى القبائل الأخرى رغم ما حاول من عرض هذا الدين في المواسم ! .

وكيف كانت مواجهة أهل الطائف له بهذا الأسلوب من الجفاء ! .

---

(١) قرن الثعالب هو ميقات أهل نجد ويقال له قرن المنازل (المواهب اللدنية ١/ ٢٩٩) ، ويسمى الآن « السيل الكبير » .

(٢) انظر إلى مجمع الزوائد ٦/ ٣٥ .

وكيف سيدخل مكة وقد خرج منها وهي تغلي حقداً عليه وتربصاً به ! فهو بين عدوين : عدوّ قد خلفه وراء ظهره قد أساء معاملته ولم يسمح له بالدعوة في بلده ، وعدو مقبل عليه ينتظره ليوقع به الأذى ، ولقد عبر عن ذلك بقوله في دعائه المشهور « إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهَّمني أم إلى قريب ملَّكته أمري » .

هذا التفكير المتواصل يدل على أن النبي ﷺ يعيش قضيته بكل مشاعره وأحساسيسه ، والذي يعيش قضيته بهذه القوة من الحماس والاهتمام لابد أن يصل إلى النجاح بتوفيق الله تعالى ، وهو إن أخفق مرات فسينجح مرات أخرى .

ولذلك نجد أن النبي ﷺ نجح بتسديد من الله تعالى في اجتذاب أفضل العناصر البشرية في مكة المكرمة .

وإذا كان لم ينجح هذه المرة مع أهل الطائف فقد نجح بعدها في موسم ذلك العام في اجتذاب نفر من الخزرج اعتنقوا الإسلام لما عرضه عليهم ، ثم كانوا سببا في انتشار الإسلام في المدينة كما سيأتي .

هذا وإن للمسلمين أسوةً حسنة برسول الله ﷺ في أن يجعلوا الإسلام هو قضيتهم الكبرى في الحياة ، يطبقونه كما جاء من عند الله تعالى ، ويدعون إليه باهتمام وحماس ، ويدافعون عنه بقوة وحكمة ، ويجاهدون في سبيله بجد وإخلاص .

ولقد كان رسول الله ﷺ رحيما بقومه إذ عرض عليه ملك الجبال أن يُطْبق عليهم الأخشبين وهما جبلا مكة أبو قبيس وقعيقعان فلم

يستجب لذلك بالرغم من المعاملة القاسية التي عاملوه بها ، بل رجا الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله جل وعلا ولايشرك به شيئاً ، وقد استجاب دعاءه فأسلم قليل منهم قبل فتح مكة وأسلم بقيتهم بعد الفتح .

كما كان رسول الله ﷺ عظيم الأمل في هداية قومه وإن قَدَّر الله تعالى أن تحقيقه بعيدُ الأجل ، فهو قد رجا أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى إن كان في قدر الله تعالى أن أولئك لن يدخلوا في الإسلام .

وان هذا الأفق البعيد في الأمل يدلنا على مقدار اهتمام النبي ﷺ بدعوته حتى أصبح الأمل في هداية الناس يفوق في إحساسه الشعور بالرغبة في الانتقام من اعدائه واغتنام ذلك العرض الكبير للتشفي من قومه الذين أنزلوا به وبأتباعه صنوف الأذى وأحاطوا دعوته بالأغلال والقيود .

هذا وقد ذكر الأموي في مغازيه أن رسول الله ﷺ بعث « أريقطَ » إلى الأخنس بن شريق فطلب منه أن يجيره بمكة فقال : إن حليف قريش لايجير على صميمها .

ثم بعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره فقال : إن بني عامر بن لؤي لاتجير علي بني كعب بن لؤي .

فبعثه إلى المطعم بن عدي ليجيره فقال : نعم قل له فليأت ، فذهب

إليه رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة ، فلما أصبح خرج معه هو وبنوه ستة - أو سبعة - مُتَقَلِّدي السيوف جميعاً ، فدخلوا المسجد ، وقال لرسول الله ﷺ : طف ، واحتَبَوا بحمائل سيوفهم في المطاف .

فأقبل أبو سفيان إلى مطعم فقال : أمجير أو تابع ؟ قال : لا بل مجير ، قال : إذاً لاتُخْفَر ، فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه ، فلما انصرف انصرفوا معه ، وذهب أبو سفيان إلى مجلسه .

ثم ذكر أبياتًا لحسان بن ثابت رضي الله عنه في مدح مطعم بن عدي لهذا الموقف حيث قال :

فلو كان مجدٌ مُخْلِدَ اليومَ واحدا ... من الناس نَجَّى مجدُه اليوم مطعما

أجرتَ رسول الله منهم فأصبحوا ... عبادك ما لبَّى مُحلٌّ وأحرَما

فلو سُئلتْ عنه مَعَدٌّ بأسرها ... وقحطان أو باقي بقية جرهما

لقالوا هو المُوفي بخُفْرة جاره ... وذمته يوما إذا ما تجشّما

وما تطلع الشمس المنيرة فوقهم ... على مثله فيهم أعزَّ وأكرما

إباءٌ إذا يأبى وألينُ شيمة ... وأنومُ عن جار إذا الليل أظلما

ذكره الحافظ ابن كثير [١] .

وذكر الحافظ ابن حجر أن الفاكهي أورد هذه القصة بإسناد حسن مرسل [٢] .

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٣٥ .

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٢٤ .

وأخرج الإمام البخاري من حديث الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه « أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر : لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النَّتْنَى لتركتهم له »[1] .

يعني لتركهم له بغير فداء مكافأة له على ذلك الموقف النبيل .

وهكذا رأينا رسول الله ﷺ - بأبي هو وأمي - يدخل مكة في جوار رجل من أشرافها وهو القادر على أن يسأل الله تعالى أن يحميه بملائكته أو بأي أمر آخر خارق للعادة .

لقد عرض عليه في هذه الرحلة ملك الجبال ماهو أكبر من ذلك حيث عرض عليه أن يُطبق على أهل مكة جبليها ، ولكن رسول الله ﷺ أبى رجاء أن يُخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله جل وعلا .

ولقد حماه الله سبحانه قبل ذلك بملائكته ولكن بدون طلب منه ، ونراه يدخل مكة كما يدخل البشر العاديون فيحتاط لنفسه بطلب الجوار .

إنه ﷺ قدوة عليا لأمته ، وإذا كان الله تعالى قد منَّ عليه بالعصمة والحماية فليس ذلك مما يتحقق لأفراد أمته ، وهو قدوتهم في تطبيق شريعة الله تعالى ، فهو لذلك يقوم بالتصرفات المطلوبة من أي مسلم عاديٍّ حيث يعمل بالأسباب الممكنة للوصول للنتائج المطلوبة ، ثم يدع مافوق قدرته وطاقته لله تعالى .

---

(١) صحيح البخاري رقم ٤٠٢٤ ، المغازي (فتح الباري ٧/ ٣٢٣) .

والنتنى جمع نتن أي كريه الرائحة ، والمقصود الرائحة المعنوية لاتصافهم بالكفر .

وكونه ﷺ دخل في جوار المطعم بن عدي لايتنافى مع التوكل على الله تعالى ، بل إن ذلك من الأسباب التي كان يفعلها تلافياً لوقوع حرب بينه وبين الكفار ، والله سبحانه لم يأذن له بالقتال في ذلك الوقت .

هذا وكون النبي ﷺ أقرَّ حسان بن ثابت رضي الله عنه في ثنائه البالغ على المطعم بن عدي ، وكونه ﷺ أثنى عليه أيضاً إلى حدٍّ أنه أبدى استعداده لأن يتنازل عن الأسرى لو كان المطعم حياً وكلمه فيهم . . دليل واضح على أن من شريعة الإسلام الاعتراف بفضل أهل الفضل والثناء عليهم بمالَهم من معروف وإن كانوا غير مسلمين .

وإن هذا الموقف الكريم من رسول الله ﷺ يعتبر أكبر مشجع لعقلاء الكفار على مناصرة المسلمين وحمايتهم والدفاع عنهم .

وكم يحتاج المسلمون إلى مثل هؤلاء ليقفوا في صفهم في مثل العصر الحاضر الذي تكالب فيه الأعداء على المسلمين الصادقين في إسلامهم ، وحاربوهم بالمواجهة أحياناً ، وبالمكر في الخفاء أحايين كثيرة ، بينما قل وجود المناصرين لهؤلاء الصادقين حتى من إخوانهم المسلمين .

هذا ومنْ طلب النبي ﷺ لهذه الحماية والاستفادة منها في حماية الدعوة وتثبيتها نستفيد جواز قبول حماية المعتدلين من الكفار بشرط وجود التمثيل الكامل لدعوة الإسلام من غير نقص ولا انحراف .

هذا في حال ضعف المسلمين وعدم وجود قوة لهم يستغنون بها عن حماية الكفار أما في حال وجود هذه القوة فيجب على المسلمين أن

يقوموا بحماية الدعاة إلى الله تعالى حتى يتمكنوا من القيام بمهمتهم في الدعوة .

وإذا نكل المسلمون عن القيام بحماية الدعاة بالدرجة الكافية أو ضعفوا عن ذلك فإنه يجوز للدعاة أن يبحثوا عن مصادر أخرى للحماية وإن كانت من الكفار المعتدلين في نظرتهم إلى الإسلام والذين يقدِّرون عادةً قيام العدل وينصبون أنفسهم للانتصار للمظلومين .

* * *

٤ - مثل أعلى للشجاعة في قول الحق

(خبر الإسراء برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس)

حينما يكون القلب معمورا بالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ، وممتلأً يقينا بالحقائق الكبرى المنبثقة عن ذلك فإن هذا الإيمان لا يبقى حبيسا في نفس صاحبه ، بل لا بد أن يظهر أمام الناس وإن قاموا بمجابهته وإنكاره ، لأن الإيمان القوي يولّد الشجاعة العالية في قول الحق والدفاع عنه ، وكلما كان الإيمان أقوى كانت الشجاعة أبلغ وأوسع مجالاً .

وإن أصدق مثال على ذلك ما قام به رسول الله ﷺ صبيحة ليلة الإسراء من إعلان الإسراء به من المسجد الحرام إلى بيت المقدس .

ومن أكمل الروايات التي رويت في حادث الإسراء ما أخرجه الحافظ أبو يعلى بإسناده إلى أم هانيء رضي الله عنها قالت : دخل عليَّ رسول الله ﷺ بغلس ، فجلس ، وأنا على فراشي ، فقال : شَعُرْتُ أني بتُّ الليلة في المسجد الحرام ، فأتاني جبريل ، فذهب بي إلى باب المسجد ، فإذا بدابة أبيض ، فوق الحمار ، ودون البغل ، مضطرب الأذنين ، فركبت وكان يضع حافره مد بصره ، إذا أخذني في هبوط طالت يداه وقصرت رجلاه ، وإذا أخذني في صعود طالت رجلاه وقصرت يداه ، وجبريل لا يفوتني ، حتى انتهينا إلى بيت المقدس ، فأوثقته بالحلقة التي كانت الانبياء توثق بها ، فَنُشر لي رهط من الأنبياء ، منهم إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، فصليت بهم ، وكلمتهم .

وأُتيت بإناءين أحمر وأبيض ، فشربت الأبيض ، فقال لي جبريل : شربت اللبن ، وتركت الخمر ، لو شربت الخمر لارتدت أمتك . ثم ركبته ، فأتيت المسجد الحرام وصليت به الغداة .

قالت : فعلقتُ بردائه : أنشدك الله يا ابن عمي ! أن تحدِّث بهذا قريشاً ، فيكذبك من صدّقك . فضرب بيده على ردائه ، فانتزعه من يدي ، فارتفع عن بطنه فنظرت إلى عُكَنه [1] ، فوق إزاره كأنها طيٌّ القراطيس ، فإذا نور ساطعٌ عند فؤاده ، كاد يخطف بصري ، فخررت ساجدةً ، فلما رفعت رأسي إذا هو قد خرج ، فقلت لجاريتي نبعة : ويحك اتبعيه ، فانظري ماذا يقول ، وماذا يقال له .

فلما رجعت نبعة ، أخبرتني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من قريش ، في الحطيم ، فيهم المطعم بن عدي ، وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة ، فقال : « إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد ، وصليت به الغداة ، وأتيت فيما دون ذلك بيت المقدس ، فَنُشِر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم ، وموسى وعيسى ، وصليت بهم وكلمتهم » .

فقال عمرو بن هشام كالمستهزيء به : صفهم لي ، فقال : أما عيسى ، ففوق الربعة ، ودون الطول ، عريض الصدر ، ظاهر الدم ، جعد ، أشعر تعلوه صهبة [2] ، كأنه عروة بن مسعود الثقفي . وأما

---

(١) جمع عُكْنة وهي ما انطوى وتثنّى من لحم البطن .

(٢) أي بياض بحمره .

موسى ، فضخم آدم ، طوالٌ ، كأنه من رجال شنوءة متراكب الأسنان ، مقلص الشفة ، خارج اللثة ، عابس . وأما إبراهيم فو الله إنه لأشبه الناس بي ، خَلْقًا ، وخُلُقًا .

قال : فضجوا ، وأعظموا ذلك ، فقال المطعم بن عدي : كل أمرك قبل اليوم كان أَمَمًا [1] غير قولك اليوم ، أما أنا ، فأشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس ، نصعد شهراً ، ونحدر شهراً ، تزعم أنك أتيته في ليلة ، واللات والعُزى لاأصدقك ، وما كان الذي تقول قط .

وكان للمطعم بن عدي حوض على زمزم أعطاه إياه عبد المطلب فهدمه وأقسم باللات والعزى لايسقي قطرة أبداً ، فقال أبو بكر : يامطعم ، بئس ما قلت لابن أخيك جبهته وكذبته ، أنا أشهد أنه صادق .

فقالوا : يامحمد ! فصف لنا بيت المقدس ، قال : « دخلت ليلاً وخرجت منه ليلاً » فأتاه جبريل بصورته في جناحه ، فجعل يقول : «باب منه كذا ، في موضع كذا ، وباب منه كذا ، في موضع كذا » ، وأبو بكر يقول : صدقت ، قالت نبعة : فسمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ : « يا أبا بكر ! إني قد سميتك الصديق » .

قالوا : يامطعم ! دعنا نسأله عما هو أغنى لنا من بيت المقدس ، يامحمد ! أخبرنا عن عيرنا ، فقال : « أتيت على عير بني فلان

---

(١) أي قريبا .

بالرّوحاء، قد أضلوا ناقةً لهم ، فانطلقوا في طلبها ، فانتهيت إلى رحالهم ، ليس بها منهم أحد ، وإذا قدح ماء فشربت منه ، فأسألوهم عن ذلك » - قالوا : هذه والإله آية - « ثم انتهيت إلى عير بني فلان ، فنفرت مني الإبلُ ، وبرك منها جمل أحمر ، عليه جُوالق [1] مخطط ببياض ، لا أدري أكسر البعير ، أم لا ، فاسألوهم عن ذلك » - قالوا : هذه والإله آية - « ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم ، يقدُمها جمل أورق[2] ، وها هي ذه تطلع عليكم من الثنية [3] »فقال الوليد بن المغيرة : ساحر .

فانطلقوا فنظروا ، فوجدوا الأمر كما قال : فرموه بالسحر ، وقالوا : صدق الوليد بن المغيرة فيما قال [4] .

وأخرجه الحافظ ابن سيد الناس من طريق الحافظ أبي يعلى وذكر مثله[5] .

وأخرجه بنحوه الإمام ابن إسحاق بلاغا عن أم هانيء رضي الله عنها [6] .

---

(١) هو العدْل الذي يوضع فيه المتاع .

(٢) أي لونه أبيض وفيه سواء .

(٣) أي الطريق الجبلي .

(٤) المطالب العالية للحافظ ابن حجر ٤/ ٢٠١ - ٢٠٤ .

(٥) عيون الأثر ١/ ١٤٠ - ١٤٢ .

(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ١١ .

ورواه الإمامان أحمد ومسلم مختصرا من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه [1] .

وذكره الحافظ الهيثمي مختصرا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح [2] .

وأخرج الحاكم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : لما أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس .

قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟

قال : نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة ، فلذلك سُمِّي أبو بكر الصديق .

---

(١) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٥١ ، صحيح مسلم رقم ١٦٢ . كتاب الإيمان ، باب الإسراء (ص١٤٥) .

(٢) مجمع الزوائد ١/ ٦٤ .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي[1] .

وأخرج الإمام البخاري من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لما كذَّبتني قريش قمت في الحجْر فجلا الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »[2] .

ولم يَرد في رواية أم هانيء السابقة ذكر المعراج ولكنه ورد في روايات أخرى أخرجها الإمام البخاري وغيره[3] ، ولم نذكرها لطولها ولأن المقصود هو الإشادة بالمواقف المترتبة على الإسراء ، لأن النبي ﷺ أعلنه أمام الكفار متحديا إنكارهم وجحودهم لما يخبرهم به من خبر السماء ، وطوى رسول الله ﷺ خبر المعراج عن المشركين لَمَّا أخبرهم بخبر الإسراء لأنهم باعتبار أنهم لم يكونوا يصدقونه في خبر السماء مع وضوح الفرق الشاسع بين كلام الله تعالى المنزل وكلامهم فكيف يصدقونه في خبر العروج إلى السماء ، وليس هناك دلائل مشاهدة تلزمهم بالتصديق كما هو الحال في الإسراء .

أما الإسراء إلى بيت المقدس فقد أظهر الله تعالى علامات مشاهدة تلزم الكفار بالتصديق وهذه العلامات هي :

---

(١) المستدرك ٣/ ٦٢ .

(٢) صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار حديث رقم ٣٨٨٦ (الفتح ٧/ ١٩٦) .

(٣) انظر صحيح البخاري رقم ٣٨٨٧ ومسلم رقم ٢٥٩ .

أولاً : وصف النبي ﷺ بيت المقدس ، وبعضهم قد سافر إلى الشام ورأى المسجد الأقصى ، وقد سبق في رواية البخاري أن الله تعالى كشف لنبيه ﷺ المسجد الأقصى حتى وصفه للمشركين ، وقد أقروا بصدق الوصف ومطابقته للواقع الذي يعرفونه .

ثانياً : إخباره عن العير التي بالروحاء ، والبعير الذي أضلوه ، وما قام به من شرب الماء الذي في القدح .

ثالثاً : إخباره عن العير الثانية التي نفرت فيها الإبل ووصفه الدقيق لأحد جمالهم .

رابعاً : إخباره عن العير الثالثة التي بالأبواء ، ووصفه الجمل الذي يقدمها ، وإخباره بأنها تطلع ذلك الوقت من ثنية التنعيم .

وقد جاء في رواية ابن عباس والرواية التي أخرجها ابن إسحاق أن المشركين ذهبوا إلى ثنية التنعيم فوجدوا العير كما وصفها الرسول ﷺ .

وجاء في رواية ابن إسحاق أن المشركين سألوا أصحاب العير الأخرى الذين أضلوا بعيرهم وفقدوا ماءهم ، فكان جوابهم كما أخبر النبي ﷺ .

فكانت هذه الأدلة الظاهرة مفحمة لهم ولا يستطيعون معها أن يتهموه بالكذب .

وبعد عرض حادث الإسراء تبين لنا مثل فريد من شجاعة النبي ﷺ العالية فقد واجه المشركين بأمر تنكره عقولهم ولاتدركه في أول الأمر

تصوراتهم ، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم وتلقي نكيرهم واستهزائهم ، فضرب بذلك لأمته أروع الأمثلة في الجهر بالحق أمام أهل الباطل وإن تحزبوا ضد الحق وجندوا لحربه كل ما في وسعهم .

لقد قام سريعاً فور عودته من هذه الرحلة العلوية المباركة وأخبر بها أعداءه قبل أكثر المؤمنين به ، ولم يستأن بالأمر حتى يخبر المؤمنين ويتقوى بموقفهم ، بل جابه الكفار بهذا الخبر وهو يعلم ما سيترتب عليه من الإنكار والسخرية ، وذلك أن من مرَّ بهذه الرحلة العظمى سيرى الأرض كلها بما فيها من مخلوقات نقطةً صغيرة في ذلك الكون الفسيح .

ثم ما مقام كفار مكة في هذه النقطة ؟ إنهم لايمثِّلون إلا جزءًا يسيرا جداً من هذا الكون ، فما الذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه وخصه بتلك الرحلة العلوية الميمونة وجمعه بالملائكة والأنبياء عليهم السلام وأراه السموات السبع وسدرة المنتهى والبيت المعمور وكلمه جل وعلا ؟ .

لقد عاد النبي ﷺ بقوة عظمى لايقاومها بأس الكفار الضعيف ، فكانت المواجهة والمجابهة ثم التفوق والانتصار للحق على الباطل .

ومن هنا وبصورة مصغرة جدا نتصور قوة المؤمن الحق الذي يمتليء قلبه بالإيمان ، وتُشحَن مشاعره بتصور عظمة مخلوقات الله جل وعلا من السماوات والأرض ومابينهن ، وما أخبر الله تعالى به عن يوم القيامة

ومافيه من أهوال ونعيم أو جحيم ، وما بين الدنيا والآخرة من الحياة البرزخية ، ثم مقارنة مقام المرء في هذه الحياة الدنيا بالنسبة لما بعدها من حياة الخلود ومابين ذلك .

لاشك أن من عُمر قلبه بهذه المشاعر سيحتقر كل ما في الدنيا من مظاهر العظمة وأسباب القوة التي ينخدع بها قصار النظر ، الخاويةُ قلوبهم من نفحات الإيمان الحية التي تهز المشاعر وتتحكم في السلوك .

كما يتبين لنا بجلاء في هذا الخبر إيمان أبي بكر رضي الله عنه الراسخ ، فقد بلغه هذا الخبر من الكفار ، حيث سارع النبي ﷺ بإخبارهم ، فلما أخبروه قال لهم بلسان الواثق الموقن : لئن كان قال ذلك لقد صدق ، ثم قال : إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة .

وبهذا استحق لقب الصديق رضي الله عنه .

وهذا منتهى الفقه واليقين حيث وازن بين هذا الخبر ونزول الوحي من السماء ، فبين لهم أنه إذا كان غريبا على الإنسان العادي فإنه في غاية الإمكان بالنسبة للنبي ﷺ .

* * *

٥ - نماذج من الانطلاق بالدعوة خارج مكة

بدأ رسـول الله ﷺ بدعوة عشيرته الأقربين فاستجاب منهم من استجاب ، وسالمه بعضهم وعاداه آخرون .

ثم دعا قومه فاستجاب بعضهم وعاداه أكثر قومه ، وخاصة كبراؤهم ، وجرى منهم له ولأتباعه ماسبق بيان بعضه من الأذى والعداء .

ثم قام رسول الله ﷺ بدعوة قبائل العرب ، وقد مكنه من ذلك كون مكة المكرمة مقصد العرب في المواسم ، فكان ﷺ يدور على القبائل يدعوهم إلى الإسلام .

فمن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف [١] ، فيقول : هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل ، فأتاه رجل من همدان ، فقال : ممن أنت ؟ فقال الرجل من همدان ، قال : فهل عند قومك من منعة [٢] ؟ قال : نعم ، ثم إن الرجل خشي أن يخفره قومه فأتى رسول الله ﷺ فقال : آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابل ، قال : نعم ، فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب [٣] .

---

(١) يعني موقف الحجاج في عرفة .

(٢) يعني قوة يمتنعون بها من لجأ إليهم .

(٣) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٦٧ .

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي الزناد عن ربيعة بين عباد الدؤلي قال : رأيت رسول الله ﷺ بَصَرَ عيني بسوق ذي المجاز يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ويدخل في فجاجها والناس مُتقصِّفون عليه فما رأيت أحدًا يقول شيئاً ، وهو لايسكت يقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه ذا غديرتين يقول : إنه صابيء كاذب ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة ، قلت : من هذا الذي يكذبه ؟ قالوا : عمه أبو لهب .

قلت : إنك كنت يومئذ صغيراً ، قال : لا والله إني يومئذ لأعقل[1] .

وأخرج الحاكم بإسناده عن محمد بن المنكدر سمع ربيعة بن عباد الدؤلي يقول : رأيت رسول الله ﷺ بمنى في منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول : يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً قال : ووراءه رجل يقول : يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم ، فسألت عن هذا الرجل ، قيل : أبو لهب .

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٤٩٢ ، وقوله : « قلت » يعني قال ابن أبي الزناد عبد الله بن ذكوان لربيعة هذا الكلام ، وذكره الهيثمي من رواية الإمام أحمد وابنه ووثق رجال إحدى الروايات التي رواها عبد الله بن الإمام أحمد - مجمع الزوائد ٦/ ٢٢ - .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ورواته عن آخرهم ثقات أثبات وأقره الذهبي [١] .

وأخرجه ابن سيد الناس [٢] .

وأخرج الإمام أحمد وابن حبان والحاكم واللفظ له من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة وعكاظ ومنازلهم من منى : من يؤويني ، من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة ، فلا يجد أحدًا ينصره ولايؤويه ، حتى إن الرجل ليرحل من مُضَرَ أو من اليمن إلى ذي رحمه فيأتيه قومه فيقولون له : احذر غلام قريش لايفتنك ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل ، يشيرون إليه بالأصابع [٣] .

وأخرج الطبراني من حديث الحارث بن الحارث قال : قلت لأبي ماهذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابيء لهم ، قال : فنزلنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله عز وجل والإيمان ، وهم يردون عليه ويؤذونه ، حتى إذا انتصف النهار وانصدع الناس عنه أقبلت امرأة قد بدا نحرها تحمل قدحاً ومنديلاً ، فتناول منها

---

(١) المستدرك ١/ ١٥ .

(٢) عيون الأثر ١/ ١٠٠ .

(٣) مسند أحمد ٣/ ٣٢٢ ، موارد الظمآن / ٤٠٨ رقم ١٦٨٦ ، المستدرك ٢/ ٦٢٤ .

فشرب وتوضأ ثم رفع رأسه فقال : يابنية خَمِّري عليك نحرك ولاتخافي على أبيك ، قلنا : من هذه ؟ قالوا : هذه زينب بنته .

ذكره الهيثمي وقال : ورجاله ثقات [1] .

وأخرج الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة من حديث طارق بن عبد الله المحاربي قال : رأيت رسول الله ﷺ مرتين : مرة بسوق ذي المجاز ، في بياعة [2] لي أبيعها ، ومرة وعليه جبة له حمراء ، وهو ينادي بأعلى صوته : أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله ، تفلحوا ، ورجل يتبعه بالحجارة ، وقد أدمى كعبه وعرقوبه ، ويقول : يا أيها الناس ، لاتطيعوه فإنه كذاب ، قلت : من هذا ؟ قالوا غلام من بني عبد المطلب قلت : فمن هذا الذي يتبعه يرميه ؟ قالوا عمه عبد العُزى ، وهو أبو لهب ، قال : فلما ظهر الإسلام قبَلَ المدينة ، أقبلنا في ركب من الرَّبَذَة حتى نزلنا قريباً من المدينة . . فذكر الحديث [3] .

وروى أبو نعيم عن عبد الله بن وابصة العبسي عن أبيه عن جده قال : جاءنا رسول الله ﷺ بمنى فدعانا فاستجبنا له ، وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسي فقال لنا : أحلف بالله لو صدَّقنا هذا الرجل وحملناه

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٢١ .

(٢) أي سلعة يبيعها .

(٣) المطالب العاليه بزوائد المسانيد الثمانية للحافظ ابن حجر ٤/ ١٩١ رقم ٤٢٧٧ .

وقال المحقق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي : قال البوصيري : رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح وأبو يعلى وابن حبان والحاكم ، ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا .

حتى نحلَّ به وسط رحالنا لكان الرأي ، فأحلف بالله ليظهرنَّ أمره حتى يبلغ كل مبلغ فأبى القوم وانصرفوا .

فقال لهم ميسرة : ميلوا بنا إلى فَدك فإن بها يهود نسألهم عن هذا الرجل ، فمالوا إلى يهود فأخرجوا سفرهم[1] فوضعوه ثم درسوا ذكر رسول الله ﷺ النبي الأمي العربي يركب الحمار ويجتزئ بالكسْرة ، وليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالجعد ولا بالسبط في عينيه حمرة مشرب اللون ، قالوا : فإن كان هو الذي دعاكم فأجيبوه وادخلوا في دينه فإنا نحسده ولانتبعه ولنا منه في مواطن بلاء عظيم ، ولا يبقى أحد من العرب إلا اتبعه أو قتله ، فقال ميسرة : ياقوم إن هذا الأمر بيِّن فَأَسْلَم ميسرة[2] .

وذكر الإمام الذهبي عن شعبة عن الأشعث بن سليم عن رجل من كنانة قال : رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز وهو يقول : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » وإذا خلفه رجل يسفي عليه التراب فإذا هو أبو جهل ويقول : لايغرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى .

قال الذهبي : إسناده قوي[3] .

---

(١) بكسر السين وسكون الفاء أي كتاب دينهم .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٥٦ .

(٣) تاريخ الإسلام السيرة / ١٥١ .

هذه نماذج من أمثلة كثيرة تدل على اهتمام النبي ﷺ البالغ بدعوته ، حيث لم يجلس في بيته أو في المسجد الحرام فقط ينتظر الناس أن يأتوا إليه ، بل خرج إلى القبائل في منازلهم ، وغشيهم في مجالسهم ونواديهم يدعوهم إلى الله تعالى .

وفي هذه الأخبار مثل من التسابق القائم بين دعاة الحق ودعاة الباطل ، فرسول الله ﷺ الذي هو إمام الدعاة وهاديهم يتنقل بين أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام ، ولا يمنعه صدودهم وجفاؤهم ومنطق بعضهم الساخر من أن يواصل دعوته إياهم كل عام .

وبينما نجد رسول الله ﷺ يشيد بهدفه الأعلى في هذه الدعوة فيركز على توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة نجد المشركين يركزون على الدعوة إلى آلهتهم التي يقدسونها ويشفقون على رموز باطلهم ، فالأصنام عندهم هي معالم دينهم فهم يدافعون عنها ولو ماتوا في سبيل ذلك ، لأنهم يعتبرون وجودهم من وجود هذه المعالم ، وسيادتهم منوطة باستمرار هيمنتها على النفوس .

وهكذا أغلب دعاة الباطل يَتَفَانَونَ في الدفاع عن باطلهم ، وقد تكون معالم الباطل أصناماً من الأشجار والأحجار ، وقد تكون أوثاناً من البشر الذين طغوا في البلاد إما بدافع من قوتهم المادية وتمكنهم في الأرض ، أو بدافع من بروزهم في المجال الفكري ، فيجتمع إليهم كل من قصر همه وطموحه على منافع الحياة الدنيا وغفل عن نعيم الآخرة

وأهوالها ، فقد ينخدع المسئول بماله من سلطة وهيمنة ويرى أنه أعلى ممن هم تحت إدارته فيطغى ويتجبر ، وقد يوصله طغيانه إلى رد شريعة الله تعالى واختيار القوانين البشرية التي تلائم هواه .

وقد ينخدع المفكر بفكره إذا لم يحجزه إيمان صادق أو عقل راسخ فيتطاول على خالقه وخالق كل شيء جل جلاله ،أو على من هم فوق البشر العاديين وهم الأنبياء عليهم السلام ، أو على ما دعوا إليه من الهدى ، فيجتمع على الإعجاب بهؤلاء المفكرين صرعى الشبهات الذين يتخبطون ههنا وهناك بحثاً عن الحق ، والحق أقرب شيء إليهم ، ولكنهم يريدون أيَّ فكرة بشرية جديدة ليستغنوا بها عن الدين الإلهي العظيم الذي ورثوه فأصبح مألوفاً لديهم ، وأصبحوا به في نظرهم مغمورين ، لأنهم لم يكونوا فيه من الرؤوس ولا من البارزين فهم يضربون في الأرض يبحثون عن كل فكرة تقاوم هذا الدين وإن كانوا ممن يجهل حقيقتها وأهدافها .

* * *

٦ - (منهج حكيم في الدعوة)

كان رسول الله ﷺ حليماً في معاملته ، حكيماً في دعوته فكان يحاول الدخول إلى قلوب الناس من الجوانب التي يرى أنها تؤثر عليهم ، من غير أن يتفوه بباطل ولا أن يمارس سلوكاً منحرفاً .

وإن من أمثلة منهجه ﷺ الحكيم في دعوته ماذكره ابن إسحاق رحمه الله في سياق روايته عن دعوة النبي ﷺ من حديث محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين : أن رسول الله ﷺ أتى قبيلة كلب في منازلهم - يعني في الحج والمواسم الأخرى - إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم إلى الله تعالى وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول لهم : يابني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم (١) .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق به وذكر مثله (٢) .

ومن ذلك ما أخرجه البيهقي من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل ، يا أبا الحكم هلمَّ إلى الله عز وجل وإلى رسوله أدعوك إلى الله ، قال أبو جهل : يا محمد هل أنت مُنْتَه عن سب آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فو الله لو أني أعلم أن ما تقول حقاً ما اتبعتك .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٩ .

فانصرف رسول الله ﷺ . قال : وأقبل عليٌّ فقال : فو الله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكنَّ بني قصي قالوا : فينا الحجابة فقلنا : نعم ، فقالوا : فينا النَّدوة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ، قالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكَّت الركب قالوا منا نبي . والله لا أفعل [١] .

ففي هذين الخبرين مثل مما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من حسن العرض والحكمة في الدعوة حيث يخاطب الناس بما يحبون ، ففي الخبر الأول أثنى على بني عبد الله ببيان أن الله تعالى قد أحسن اسم أبيهم ، وهذا أسلوب من أساليب التودد للدخول إلى قلوب الناس والتأثير عليهم .

وفي الخبر الثاني يخاطب أبا جهل بكنيته « يا أبا الحكم » والنداء بالكنية تكريم عند العرب ، وقد تناسى النبي ﷺ بذلك مواقفه السيئة في سبيل الدعوة .

وهذا درس مهمٌّ يستفيد منه الدعاة إلى الله تعالى في ضبط النفس ، ومحاولة التودد إلى الناس من أجل الإسلام وإن سبقت منهم مواقف مؤلمة .

ويشبه هذا السلوكَ العاليَ من رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٧ ، وذكره الحافظان الذهبي وابن كثير وسكتا عنه - تاريخ الإسلام / السيرة / ١٦١ ، سيرة ابن كثير ١/ ٤٠٦ - .

تعالى خبر إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه ، حيث كان ذلك بسبب ثناء النبي ﷺ كما سيأتي في خبر إسلامه .

وفي هذا الخبر شهادة للإسلام بأنه دين الحق صدرت من رجل من ألدّ أعداء هذا الدين وهو أبو جهل ، ثم بيان للمانع الذي منعه من الدخول في الإسلام وهو التنافس على الشرف الوهمي الذي ورثه وقومُه في الجاهلية .

لقد ساء أبا جهل أن دوحة بني هاشم قد اخضرت وأينعت ثمراتها ، بينما ظلت دوحة بني مخزوم على جفافها وذبولها كسائر فروع قبيلة قريش فحسد بني هاشم على ذلك الشرف العظيم الذي ليس باستطاعة قومه أن يصلوا إليه ، ولو عقل وأدرك لعرف أن بإمكانه انقاذَ نفسه وقبيلته ، والرفعَ من شأنها بالإيمان برسول الله ﷺ واتّباعه .

* * *

٧ - وضوح دعوة الحق في غبش الجاهلية

(موقفان لرسول الله ﷺ مع بني عامر ومع عمه أبي لهب)

لقد كان رسول الله ﷺ واضحاً في دعوته ، يسير على منهج الله تعالى ، لايتقدم عليه بشيء ، ولايقبل المساومة في دين الله تعالى وإن كان الثمن هو التقدم لنصرته وحماية دعوته .

وإن من أمثلة وضوحه في دعوته وتسليمه لأمر الله تعالى ما جاء في حواره مع بني عامر .

ذكر ابن إسحاق رحمه الله أن رسول الله ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم يقال له « بَيْحرة بن فراس » : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء » فقال : أفَنُهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لاحاجة لنا بأمرك .

وذكر أن شيخاً لهم كبيراً لامَهُم بعدما رجعوا على رد هذه الدعوة ، وقال : والذي نفس فلان بيده ماتَقَوَّلها إسماعيلي قط ، وإنها لحق فأين رأيكم كان عنكم ؟[1] .

هذا وإن قول أولئك القوم حينما دعاهم النبي ﷺ : أيكون لنا الأمر

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٨ - ٣٩ ، تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٠ ، البداية والنهاية ٣/ ١٣٩ .

من بعدك ، مشهد يبين لنا كيف كان أهل الجاهلية يفكرون حينما كانوا ينظرون إلى دنياهم ولا يفقهون شيئاً عن الحياة الآخرة .

وهذه الروح الجاهلية التي يغلب عليها هذا التساؤل عند الإقدام على أي عمل : ماذا لنا في هذه الحياة ؟ هي صورة تتكرر مع الأسى والحسرة في واقع المسلمين ، فتجد بعضهم حينما يُعرض عليه أمر المشاركة في الدعوة إلى الله تعالى يتصور أولاً ما الذي سيستفيد من ذلك في دنياه ، وما هو الخطر الذي سيواجهه في هذه الحياة من الإقدام على الدعوة ، والشيطان في هذه الحال حريص على أن يضخم في عين المسلم مستقبله الدنيوي سواء في جلب الخير أواتقاء الشر ، وأن يقلل في عينه مستقبله الأخروي ، ويشغله عن التفكير فيه بما يزدحم على فكره من التصورات الدنيوية .

فَحَمَلَةُ هذا الشعور وأصحاب هذا الإتجاه يشبهون أهل الجاهلية الذين يقدِّمون لخطوهم أمرَ مستقبلهم الدنيوي وهم عن الآخرة غافلون .

وإذا كان أولئك لا يؤمنون بالآخرة فإن عدم عملهم لها مترتب على هذا الاعتقاد الجاهلي ، ولكن كيف الحال بمن يعلمون أحوال الآخرة ويؤمنون بها ثم يعملون لدنياهم كثيراً ولا يعملون لآخرتهم إلا قليلاً ؟

لاشك أن هؤلاء فيهم جاهلية في سلوكهم وإن كانوا مسلمين .

هذا وإن في رد النبي ﷺ على عرضهم ذلك بيانا لعظمة توحيده ،

وقوة استسلامه لله تعالى حيث فوض الأمر إليه وحده ، ولم يتقدم عليه بأمر يختص به جل وعلا .

كما أنه فيه بياناً لوضوح دعوته وصلابته في الثبات عليها رغم قلة أتباعه واحتياجه لتأليف قلوب العرب نحوه ، فإن احتياج الداعية إلى الأنصار مطلب مهم ، ولكن أهم منه أن يلزم الطريق المستقيم الذي شرعه الله تعالى وإن قل أنصاره .

هذا وقد جرت مساومة أخرى لرسول الله ﷺ من عمه أبي لهب بتحريض من أبي جهل وعقبة بن أبي معيط ، وقد روى الخبر في ذلك الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي بسنده عن ثعلبة بن صغير وحكيم بن حزام أنهما قالا : لما توفي أبو طالب وخديجة - وكان بينهما خمسة أيام - اجتمع على رسول الله ﷺ مصيبتان ولزم بيته وأقلَّ الخروج ، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع فيه ، فبلغ ذلك أبا لهب فجاءه فقال : يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه ، لا واللات والعزى لايوصل إليك حتى أموت .

وسب ابن الغيطلة رسول الله ﷺ فأقبل إليه أبو لهب فنال منه ، فولّى يصيح يامعشر قريش صبأ أبو عتبة . فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال : مافارقت دين عبد المطلب ، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد . فقالوا لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم .

فمكث رسول الله ﷺ كذلك أياماً يأتي ويذهب لايعرض له أحد من قريش ، وهابوا أبا لهب إذ جاء عقبة بن أبي معيط وأبوجهل إلى أبي لهب فقالا له : أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك ؟ فقال له أبو لهب يامحمد أين مدخل عبد المطلب ؟ قال مع قومه . فخرج إليهما فقال قد سألته فقال مع قومه ، فقالا : يزعم أنه في النار .

فقال يامحمد أيدخل عبد المطلب النار ؟ فقال رسول الله ﷺ : ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار ، فقال أبو لهب - لعنه الله - والله لابرحت لك إلا عدوا وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار . واشتد عند ذلك أبو لهب وسائر قريش عليه .

ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى وسكت عنه [1] .

وهكذا تفتقت أذهان هذين الشيطانين أبي جهل وعقبة عن هذا المكر الخبيث الذي استطاعا به أن يستخرجا من قلب أبي لهب العصبية الجاهلية من أصولها ، فقد كان أقدس شيء عندهم ماورثوه عن الآباء والأجداد ، وهذه العصبية هي التي منعت أبا طالب من الإسلام مع يقينه بالإسلام واعترافه في أشعاره وكلامه برسالة رسول الله ﷺ وأن دينه هو الحق ، ولكن هذه العصبية جعلت آخر كلمة يقولها قبل موته « على ملة عبد المطلب ، على ملة الأشياخ » .

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٣٢ .

فمن أجل هذه العصبية الجاهلية غيَّر أبو لهب رأيه وأعلن عن عداوته الأبدية لرسول الله ﷺ .

ولقد كان موقفا عظيما من رسول الله ﷺ أن حافظ على كمال دينه وصفاء دعوته مع ما كلفه ذلك من خسارة أقوى نصير له كان قد استعد لحمايته بدلا من عمه أبي طالب ، في الوقت الذي كان أحوج مايكون فيه إلى النصرة ، ولكنه كان يعتبر في الدرجة الأولى صفاء الهدف السامي الذي يدعو إليه وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة ، وسلامة المنهج الموصل إلى ذلك وهو الاستقامة على هذا الدين العظيم ، ويعتبر قضية الحماية والنصرة أمرا ثانويا ، إن حصل مع سلامة الهدف والمنهج فهو من الأسباب المطلوبة لتحقيق هذا المطلب ، وإن لم يحصل إلا بتشويه ذلك المطلب والانتقاص منه فليذهب غير مأسوف عليه .



٨ – من صفات حملة الرسالة

(دعوة قبيلة ربيعة)

مازال رسول الله ﷺ يدعو القبائل إلى الإسلام منذ أن أمره الله تعالى بتبليغ هذا الدين ، وقد تقدمت بعض الأخبار عن هذه الدعوة .

والآن نورد خبرا عن دعوة النبي ﷺ لقبيلة ربيعة التي اختارت منازلها بين بلاد فارس وجزيرة العرب ، وقد كانت هذه الدعوة في العام العاشر من البعثة حيث كان للنبي ﷺ جولة بين القبائل في موسم الحج بعدما كان ما كان من رد أهل الطائف دعوته كما سبق .

أخرج أبو نعيم رحمه الله بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب . . ثم ذكر خبراً طويلاً في حوار أبي بكر مع قبيلة ربيعة في بيان أنسابها وأنساب قريش إلى أن قال في ذكر حوار « مفروق » زعيم من زعمائهم : « لعلك أخو قريش » .

قال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ فها هو ذا ، فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، ثم التفت إلى رسول الله ﷺ فقال : إلامَ تدعو يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله ﷺ فجلس ، وقام أبو بكر يُظَلِّلُه بثوبه .

فقال رسول الله ﷺ : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده

لاشريك له وإلى رسول الله أن تؤووني وتمنعوني وتنصروني حتى أؤدي عن الله تعالى ما أمرني به ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد .

قال له : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله ﷺ **﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدَّه وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانُكلِّفُ نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكَّرون . وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتَّبعوا السُّبُل فتَفَرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾** [1] .

وقال له مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فو الله ماهذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه ، فتلا رسول الله ﷺ : **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكَّرون ﴾** [2] .

فقال له مفروق : دعوت والله ياقرشي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفِكَ قوم كذبوك وظاهروا عليك ، وكأنه أحب

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ - ١٥٣ .

(٢) سورة النحل / ٩٠ .

أن يَشركه في الكلام هانئ بن قبيصة فقال : وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

فقال لهُ هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدَّقت قولك ، وإني أرى إنْ تَركْنا ديننا واتبعناك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، لم نتفكر في أمرك ونَنْظُرْ في عاقبة ماتدعونا إليه فإن ذلك زلة في الرأي وطيشة في العقل وقلة نظر في العاقبة ، وإنما تكون الزلة مع العجلة ، وإن من ورائنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقداً ، ولكن ترجع ونرجع وننظر وتنظر ، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة ، وإنما نزلنا بين صيْرَين أحدهما اليمامة والآخر السماوة [1] .

فقال له رسول الله ﷺ : ماهذان الصِّيْرَان ؟ فقال : أما أحدهما فطُفُوف البر وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لانحدث حدثاً ولانؤويَ مُحدثاً ، ولعل هذا الأمر الذي تدعو إليه تكرهه الملوك ، فأما ما كان مما

---

(١) هكذا جاء في البداية والنهاية ، وفي الدلائل لأبي نعيم « السمامة » ولعل ما أثبته ابن كثير هو الأصح لشهرة هذا الاسم في العراق . و « الصيران » تثنية صيرْ وهو الماء الذي يحضره الناس ، وقد صار القوم يصيرون إذا حضروا الماء - النهاية مادة صير - .

يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول ، وأما ما كان مما يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول ، فإن أردت أن ننصرك مما يلي بلاد العرب فعلنا .

فقال رسول الله ﷺ : ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق ، إنه لايقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه .

وجاء في رواية ابن حبان بعد هذا : أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ، ويفرشكم نساءهم أتسبِّحون الله وتقدسونه ؟ .

فقال النعمان بن شريك : اللهم نعم ، قال : فتلا رسول الله ﷺ : **﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾** [1] . ثم نهض رسول الله ﷺ قابضًا على يد أبي بكر ، ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ .

قال علي : وكانوا صُدُقًا صُبُراً [2] .

قال الحافظ ابن حجر : وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما : حدثني علي بن أبي طالب رضي الله عنه . . فذكر شيئاً من هذا الحديث [3] .

---

(١) سورة الأحزاب ٤٥ - ٤٦ .

(٢) الدلائل لأبي نعيم ٩٧ ، وانظر البداية والنهاية ٣/ ١٣٩ - ١٤٣ .

(٣) فتح الباري ٧/ ٢٢٠ .

وكذلك أخرجه ابن حبان من هذا الطريق [١] وجاء في رواية عند الطبراني أن النبي ﷺ بعث إليهم أبا بكر رضي الله عنه فدعاهم إلى الإسلام ، وفيها أن شيخهم المثنى بن حارثة قال : إن بيننا وبين الفرس حرباً فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا ، فقال له أبو بكر : أرأيت إن غلبتموهم أتتبعنا على أمرنا ؟ .

قال : لانشترط لك هذا علينا ولكن إذا فرغنا فيما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول : فلما التقوا يوم ذي قار هُمْ والفرس قال شيخهم : ما اسم الرجل الذي دعاكم إلى ما دعاكم إليه ؟ قالوا محمد ، قالوا : فهو شعاركم ، فنُصروا على القوم فقال رسول الله ﷺ : بي نصروا [٢] .

وذكره الهيثمي وقال : رجاله ثقات رجال الصحيح غير خلاد بن عيسى وهو ثقة [٣] ، وكذلك حسَّن اسناده القسطلاني ونسبه إلى الحاكم وأبي نعيم والبيهقي [٤] .

وهكذا رأينا هؤلاء وقد تأثروا بسماع كلام الله تعالى واعترفوا بأنه ليس من كلام البشر ، واقتنعوا بأن ما يدعو إليه رسول الله ﷺ هو الحق ، ولكن مع ذلك لم يصلوا إلى مستوى حمل الرسالة في تطبيق الإسلام وتبليغه والدفاع عنه ، لأنهم لم يتجردوا بعد من حظ النفس ،

(١) الثقات لابن حبان ١/ ٨٠ - ٨٨ .

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٦/ ٧٦ رقم ٥٥٢٠ .

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٢١١ .

(٤) شرح المواهب اللدنية ١/ ٣٠٩ .

ولـم يحرروا أنفسهم من قيد النظر إلى المستقبل الدنيوي فمنعهم ذلك من الإيمان بالإسلام وقبول حماية الدعوة الإسلامية الممثلة آنذاك برسول الله ﷺ .

نعم إنه لايصلح لحمل هذا الدين وحماية دعاته إلا من حاط به من جميع جوانبه ، والقضية التي دار حولها الحوار في هذا الخبر تتعلق بأمر حماية النبي ﷺ حتى يبلغ رسالة ربه ، وإنما يكون ذلك بالإيمان الكامل بدعوته ، وحيث إن الناس لايريدون السير وراء من يُخضعهم لنظام لم يقتنعوا به فإنهم سيعادون هذا النظام .

وقد أفصح المثنى بن حارثة عن وضع بلاده السياسي حيث أبان بأن قومه في منزل بين العرب والعجم ، ونظراً لإدراكه العالي فإنه قد فهم أن الإيمان بالإسلام يعني معاداة الناس الذين لم يؤمنوا به والتعرض لحربهم ، وقد أبدى استعداد قومه لحرب من حوله من العرب من أجل دعوة الإسلام ، ولكنه أبان عذره في عجز قومه عن مقاومة الفرس والتعرض لحربهم ، وأشار إلى أن هذا الأمر مما يكرهه الملوك ، وأن ذلك سيثير الفرس على قومه .

وقد أجاب النبي ﷺ ببيان حقيقة دعوته وهي أن الذي يصلح لحمل هذا الدين وتبليغه وحمايته هو الذي حاط به من جميع جوانبه .

ومن أبرز ذلك قضية الولاء والبراء التي دار حولها الحوار ، حيث إنه لما أبدى المثنى استعداد قومه للبراءة ممن يعادي دعوة الإسلام من

العرب ، وعدم استعدادهم للبراءة من الفرس قال النبي ﷺ هذا الكلام ، فموضوع الولاء والبراء أساس في الدعوة الإسلامية .

فالمسلم الحق هو الذي يتولى المسلمين من كانوا وأينما كانوا ، ويتبرأ من الكافرين من كانوا وأينما كانوا ، أما الذي يتبرأ من الأعداء الضعفاء من الدول الصغيرة بينما يظهر ولاءه للدول الكبرى ذات السيادة والهيمنة في الأرض فإنه لايصح لحمل هذا الدين ، ولايمكن أن يدخل في سلك الدعاة فضلاً عن أن يكون له عمل قيادي في الدعوة .

وقبل أن نغادر هذا الكلام على هذه الواقعة فإنه يجب أن لايغيب عن بالنا أن المثنى بن حارثة الشيباني قد أسلم بعد ذلك ودخل قومه في الإسلام ، وكانوا أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس ، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ولايفكرون في قتالهم ، بل إنهم ردوا دعوة النبي ﷺ بعد قناعتهم بها لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس ، الأمر الذي لم يكونوا يفكرون به أبداً .

وبهذا نعلم عظمة هذا الدين الذي رفع الله به المسلمين في الدنيا حيث جعلهم سادة الأرض ، مع ما ينتظرون في أخراهم من النعيم الدائم في الجنة .

أما الخبر الأخير فإنه يدل على أنهم مُقْدمون على حرب مع الفرس وهذا يدل على أن هذا الخبر جرى بعد الخبر الأول ، والمقصود بهذه الحرب يومُ ذي قار حيث قرر الفرس غزوهم على هذا الماء لرفضهم تسليم الودائع التي أودعها عندهم النعمان بن المنذر ملك المناذرة .

وقد ذكر الإمام الطبري خبر هذه الوقعة وأسبابها وما انتهت إليه من هزيمة الفرس ، وقدَّم ذلك بقوله : وذُكر عن النبي ﷺ أنه لما بلغه ما كان من هزيمة ربيعة جيش كسرى قال : « هذا أول يوم انتصفت العرب من العجم ، وبي نصروا »[1] يعني ماذكر في رواية الطبراني السابقة .

وإن ماجاء في هذه الرواية من اعتزاز بني بكر بن وائل بالنبي ﷺ وجعل اسمه شعاراً لهم في الحرب ، ثم قوله ﷺ : « بي نصروا » دليل واضح على أن انتصار العرب الوحيد في الجاهلية على الفرس ، والذي أصبح العرب بعد ذلك يفتخرون به كان من الله تعالى بسبب توجههم نحو الإسلام ، وإعزاز النبي ﷺ ، فهو مقدمة لما لحق بعد ذلك من انتصارات باهرة للمسلمين على الفرس حتى أزالوا دولتهم .

ومما يدل على ذلك بوضوح الزيادة التي جاءت في رواية ابن حبان حيث وعدهم النبي ﷺ وبشرهم بأنهم سيرثون أرض الفرس وديارهم وأموالهم ونساءهم .

وحيث إنهم قد آمنوا بصدق رسالة رسول الله ﷺ وأن القرآن الذي تلا عليهم ليس من كلام البشر فإنهم قد تفاءلوا خيراً بوعده وبشارته لهم بالنصر على الأعداء من الفرس فأقدموا على قتالهم لأول مرة في حياتهم ، ولكن هذا المستوى من الإيمان لم يصل بهم إلى حد التحرر من روابط الجاهلية والتجرد لنصرة الإسلام فلم يسلموا آنذاك ، ولكنهم أسلموا بعد ذلك وكانوا أول وقود للجهاد الإسلامي ضد الفرس .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٩٣ .

٩ - بدء إسلام الأنصار

من مواقف النبي ﷺ العظيمة الناجحة ماقام به من دعوة الأوس والخزرج إلى الإسلام ، حيث دخلوا بعد ذلك في الإسلام أفواجاً وناصروا دعوته فاستحقوا بذلك لقب الأنصار الذي جمعهم وغلب على انتسابهم القبلي .

ولقد كان بدء دعوة الأنصار حينما قدم وفد من بني عبد الأشهل من الأوس يلتمسون حلف قريش على قومهم من الخزرج ، وقد أخرج خبر ذلك الإمام أحمد والطبراني من حديث محمود بن لبيد أخي بني عبد الاشهل قال : لمَّا قدم أبو الحَيْسر أنس بن نافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف مع قريش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم : هل لكم إلى خير مما جئتم إليه قالوا : وماذاك قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً وأنزل عليَّ كتاباً ثم ذكر الإسلام وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثًا : أي قومي هذا والله خير مما جئتم إليه قال : فأخذ أبو الحيسر أنس بن نافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ .

وقام رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعاث [1] بين الأوس والخزرج قال : ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك ، قال محمود

---

(١) هو اسم حصن للأوس ، وحوله جرت المعركة المشهورة .

بن لبيد : فأخبرني من حضره من قومي أنه لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكّون أن قد مات مسلما لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله ثقات [١] .

ورواه ابن هشام عن ابن إسحاق من هذا الطريق وذكر مثله [٢] .

ورواه أبو نعيم الأصبهاني من حديث ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر مثله [٣] .

وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة من حديث ابن إسحاق ، وقال : رواه جماعة عن ابن إسحاق هكذا وهو من صحيح حديثه ، وقال في ترجمة إياس بن معاذ : قال ابن السكن وابن حبان : له صحبة [٤] .

لقد كان لمجيء رسول الله ﷺ إلى ذلك الوفد من الأوس دلالة واضحة على اهتمامه بدعوته ، فأولئك القوم كانوا يعانون من مشكلة كبيرة وهي قيام العداء والحروب بين قومهم وبني عمهم من الخزرج ،

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٣٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢ .

(٣) معرفة الصحابة لأبي نعيم ٢/ ٣٢٥ رقم ١٦٢ .

(٤) الاصابة لابن حجر ١/١٠١ - ١٠٢ .

والرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن حل مشكلتهم تكمُن في دخولهم جميعاً في الإسلام فسارع إليهم وقدَّم لهم هذا الحل الأمثل ، ولكنه عُمِّيَ على أفراد ذلك الوفد وأبصره فتى منهم وهو إياس بن معاذ الذي سارع إلى نصيحة قومه ودعاهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ ، ولكنه كان أصغر من أن يؤثر فيهم رأيه مع وجود الأكابر منهم ، فلم يستجيبوا لهذه الدعوة ومضوا لما قدموا من أجله .

وهذا موقف يذكر لإياس بن معاذ رحمه الله الذي حكم له قومه من بني عبد الأشهل بالإسلام حيث مات وهو يهلل الله تعالى ويكبره ويسبحه .

هذا وقد تبين لنا ما كان من موقف أهل الطائف حينما ردوا دعوة رسول الله ﷺ ، وما كان من موقف قبيلة ربيعة حيث اقتنعوا بالإسلام ، ولكنهم لم يلتزموا بمعاداة الفرس إذا هم وقفوا ضد الإسلام .

وكان مما هيأ الله تعالى لنبيه ﷺ ولدين الإسلام أن صرف إليه نفراً من الخزرج اقتنعوا بدعوة الإسلام كاملة وآمنت بها قلوبهم حقا ، وكان ذلك في نفس العام الذي رد فيه أهل ثقيف دعوة الإسلام ، وهو العام العاشر للبعثة كما في رواية الزهري [1] ، وفي نفس الموسم الذي اشترط فيه بنو ربيعة عدم الالتزام بالبراءة من جميع الكفار كما في الرواية السابقة [2] .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٣٠ .

(٢) انظر الموضوع رقم (٩) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق رحمه الله بدء إسلام الأنصار حيث قال : فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ﷺ ، وإنجاز موعده له خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيراً .

قال : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمنْ موالي يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلِّمكم ؟ قالوا : بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

قال : وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبيّاً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله تعالى قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلَّموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقُنَّكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام .

وقالوا إنا قد تركنا قومنا ولاقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم

فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا .

قال ابن إسحاق : وهم -فيما ذكر لي - ستة نفر من الخزرج ، ثم ذكر أسماءهم وأنسابهم وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله بن رئاب .

قال : فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ [1] .

ولقد نزل القرآن الكريم بتبكيت اليهود على ما كان منهم من وعيد الكفار بظهور رسول الله ﷺ ثم كفرهم به بعد ماعرفوه ، وذلك في قول الله تعالى ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ البقرة ٨٩ .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣ . وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر مثله - تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٣ - .

وفي سبب نزول هذه الآية أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمربن قتادة قال : حدثني أشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا ، كان معنا يهود وكانوا أهل كتاب ، وكنا أصحاب وثن ، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا : إن نبيا يبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ إتبعناه وكفروا به ، ففينا والله وفيهم أنزل الله تعالى ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا** ﴾ الآية كلها [1] .

وهكذا كان بدء انتشار الإسلام في المدينة على يد هؤلاء الستة ، فهؤلاء كانوا أول سفراء الخير في بلادهم .

وإذا كان للمشاهير في الخير والتضحية بعد انتشار الإسلام في المدينة من فضل لاينكر ، فإن الذين وفدوا بالإسلام معهم لأول مرة لايجوز أن يُنسَى فضلهم .

إن فضل غيرهم فيما يقدمونه من عمل صالح في الدعوة والجهاد ، ولكن فضل هؤلاء في ذلك ، وفي كونهم رائدين في نشر الإسلام في المدينة . . وإذا قلنا المدينة فإنها ليست كأي بلد .

إن انتشار الإسلام في أي بلد يعني نقل الخير إليه ، ولكن انتشار

---

(١) الدر المنثور ١/ ٨٧ .

الإسلام في المدينة يعني ذلك ، إضافة إلى نقل الإسلام للعالمين من هذه المدينة المباركة .

ولقد كان المرشّح الأهم في انجذاب هؤلاء الستة للإسلام بعد قناعتهم به هو كون اليهود يستعملون بعثة النبي المنتظر سلاحاً يوجهونه ضد الأوس والخزرج ، وحيث إن اليهود أهل كتاب ويخبرون بذلك عما في كتبهم فقد تكوَّن لدى الأنصار قناعة بهذا النبي الذي يهددهم به اليهود .

ولقد شاء الله أن يسبق إليه الأنصار فيؤمنوا به ويظهروا به على اليهود ، وأن يتقاعس عن الإيمان به اليهود الذين بشروا به وأنذروا ، لأن الله تعالى أراد الخير للأنصار لتجرد قلوبهم من الحقد والهوى المنحرف ، وحرم منه اليهود لامتلاء قلوبهم بالحقد وانقيادهم لأهواء زعمائهم الزائغة .

لقد كان إسلام هؤلاء النفر الستة بداية انطلاقة جديدة للإسلام خارج مكة المكرمة ، وكان له مابعده من انتشار الإسلام في المدينة وقيام دولته فيها بعد الهجرة .

وقد استمر الأنصار بعد ذلك يفدون إلى مكة فرادى فيُسْلمون على يد النبي ﷺ كما جاء في رواية الإمام أحمد والبزار من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : مكث رسول الله ﷺ عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجَنَّة وفي المواسم بمنى يقول : من يؤويني ؟ من

ينصرني حتى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة ؟ حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضرفيأتيه قومه فيقولون : احذر من غلام قريش لايفتنك ، ويمشي بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله إليه من يثرب ، فآويناه وصدَّقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام . . ثم ذكر بيعة العقبة [(١)] .

وفي هذه الرواية تصوير بليغ لمعاناة النبي ﷺ في سبيل نشر دعوته ، كما أن فيها بياناً لمقدار مابثه أعداؤه ضده من سمعة سيئة بلغت أقطار الجزيرة العربية .

وأخيراً فيها بيان للفتح الذي فتحه الله تعالى عليه بإسلام أبناء المدينة النبوية حيث صاروا يفدون إليه لسماع القرآن منه والإسلام على يديه ، حتى انتشر الإسلام في دور المدينة ، وأصبحت مهيأة بعد ذلك لتكوين مجتمع إسلامي ودولة إسلامية .

* * *

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٤٦ ، وقال الهيثمي : «ورجال أحمد رجال الصحيح» وانظر الفتح الرباني ٢٠ / ٢٦٩ .

وقال الحافظ ابن حجر : وعند أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان ، وأشار إلى الحديث - فتح الباري ٧/ ٢٢٢ - وانظر المستدرك ٢/ ٦٢٤ - و - موارد الظمآن / ٤٠٨ رقم ١٦٨٦ - .

١٠ - مثل من الالتزام بتطبيق الإسلام
(بيعة العقبة الأولى)

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفرض الحرب : على أن لانشرك بالله شيئاً ، ولانسرق ، ولانزني ، ولانقتل أولادنا ، ولانأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولانعصيه في معروف . فإن وفَّيتم فلكم الجنة ، وإن غَشيتُم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل : إن شاء عذب ، وإن شاء غفر [١] .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله [٢] .

وقد أخرجه الإمام البخاري من طريق الليث بن سعد بهذا الإسناد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ، ثم ذكر نحوه غير أنه لم يذكر أن هذه البيعة كانت بيعة العقبة الأولى [٣] .

وما ذكره ابن إسحاق من تحديد ذلك ببيعة العقبة الأولى هو الظاهر

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٦ .

(٣) صحيح البخاري رقم ٣٨٩٣ (الفتح ٧/ ٢١٩) .

حيث لم يذكر الجهاد في هذه البيعة وذلك قبل أن يفرض الجهاد كما جاء مصرحاً به في هذه الرواية .

وقوله : « فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تفرض الحرب » يعني أن الرسول ﷺ بايع النساء بعد ذلك بهذه البيعة بأمر الله تعالى كما جاء في قوله جل وعلا : ﴿ **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم** ﴾ [1] .

وقد بايع النساء رسول الله ﷺ بهذه البيعة بعد فتح مكة بعد نزول هذه الآية ، فكون النبي ﷺ قرر هذه البيعة على الأنصار قبل الهجرة مما أمره الله تعالى به من غير أن ينزل فيه قرآن ، ثم نزلت هذه الآية بعد ذلك .

لقد كانت هذه البيعة تأكيداً على تطبيق الإسلام ، حيث تتضمن الالتزام بطاعة الله تعالى واجتناب معصيته ، فلقد آمن أولئك الأنصار بالإسلام حقاً ولكن النبي ﷺ أراد تأكيد إيمانهم بالبيعة على العمل الصالح واجتناب العمل السيء ، حتى يكونوا من المتقين .

والمتقون هم الذين يستطيعون حمل دعوة الإسلام والجهاد في

---

(١) سورة الممتحنة آية ١٢ .

سبيلها وذلك لأن الاتجاه نحو الدعوة والدفاع عنها من غير أن يسبق ذلك الالتزام بتقوى الله تعالى يسيء إلى دعوة الإسلام ، فالمدعوُّون ينظرون أولاً إلى سلوك الدعاة وأخلاقهم فإذا عملوا بالصالحات واجتنبوا السيئات كانوا قدوة صالحة للآخرين وأصبحوا دعاة إلى الإسلام بأعمالهم وإن لم يباشروا الدعوة بأقوالهم ، فكيف إذا جمعوا بين الأمرين ؟ .

أما إذا كانوا بضد ذلك فإنهم يكونون دعاية سيئة للإسلام ولايصلحون بسبب ذلك لحمل دعوة الإسلام ، وإذا دخلوا في مجال الجهاد قبل أن يحققوا صفة التقوى في أنفسهم فإنهم لن ينجحوا في هذا المجال ، لأن أهم أسباب الفشل في الحروب هو انهزام المجاهدين أمام أنفسهم وذلك باتباعهم اهواءهم في معصية الله تعالى ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله » [(١)] .

إن أفراد الجيل الأول لم ينتصروا في الميدان الحربي إلا بعد أن انتصروا على أنفسهم فحملوها على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته ، وعلى ذلك رباهم رسول الله ﷺ ، وما هذه البيعة إلا مثَلٌ من أمثلة تلك التربية النبوية الناجحة .

هذا وقد نشط المشاركون في تلك البيعة في الدعوة إلى الإسلام في المدينة ، ومن أمثلة هذا النشاط ما قام به رافع بن مالك بن العجلان

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٢٢ ، جامع الترمذي ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ٢ - .

الزُّرَقي من حفظ مانزل من القرآن آنذاك من النبي ﷺ ، وقراءته على قومه في مسجد بني زريق الذي تم إنشاؤه قبل الهجرة النبوية .

وقد روى في ذلك الزبير بن بكار عن عمر بن حنظلة أن مسجد بني زريق أول مسجد قريء فيه القرآن ، وأن رافع بن مالك لما لقيه ﷺ بالعقبة أعطاه ما أُنزل عليه في العشر سنين التي خلت ، فقدم به رافع المدينة ، ثم جمع قومه فقرأ عليهم في موضعه .

قال : وتعجب رسول الله ﷺ من اعتدال قبلته [1] .

وهذا موقف في الدعوة يذكر لرافع بن مالك ، ولا شك أن بقية أصحاب البيعة قد بذلوا جهوداً كبيرة في الدعوة إلى الإسلام ، مما كان سبباً في انتشاره في المدينة بسرعة فائقة رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

---

(١) شرح المواهب اللدنية ١/ ٣١١ .

١١ - داعية ناجح ونفوس متجردة

(مصعب بن عمير والدعوة في المدينة)

قال محمد بن إسحاق رحمه الله - بعد أن ذكر بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى- : « فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان يسمى المقريء بالمدينة مصعبٌ ، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدُس ، أبي أمامة .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه كان يصلي بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض » .

ونشط مصعب بن عمير في الدعوة إلى الله في المدينة تحت حماية أسعد بن زرارة ومن معه من المؤمنين رضي الله عنهم حتى استطاع استقطاب زعيمين من زعماء الأوس كان لإسلامهما الأثر الكبير في نشر الإسلام في المدينة .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبيد اله بن المغيرة بن مُعَيْقب وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : « أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطًا [1] من حوائط بني ظفر ، على بئر يقال لها بئر مَرَقْ ، فجلسا في الحائط ، واجتمع إليهما رجال ممَّن أسلم .

---

(١) يعني بستاناً .

وسعد بن معاذ وأُسَيْد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه ، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير : لا أبالك [1] انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانْهَهُما عن أن يأتيا دارنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني ما حيث علمت كفيتك ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مَقْدمًا » .

فهذا سعد بن معاذ الرجل العظيم القدر في الإسلام بعد ذلك ، صاحب المواقف الكبيرة في نصرة النبي ﷺ في بدر والخندق وغيرهما من المشاهد الذي قال عنه رسول الله ﷺ يوم موته : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » نجده قبل أن ينشرح صدره للإسلام بقليل يصف هذا الدين بأنه تسفيه للضعفاء ، وما صدر منه هذا الحكم إلا لأنه كان لايزال قبل إسلامه يسير على تقليد الأوائل والتمسك بالعادات المألوفة من غير تفكير وإعمال للرأي ، وهذا داء وبيل يصاب به أكثر الناس حتى بعض المسلمين فيصرفهم عن التفكير في الحق ثم اتباعه إذا تبيَّن .

قال : « فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه ، قال : فوقف عليهما متشتِّماً - يعني موجهاً كلمات الشتم - فقال : ماجاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا ؟ إعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة » .

(١) لا أبالك كلمة مدح ومعناها لاكافي لك إلا نفسك .

وقد يتعجب المتأمل من صدور مثل هذا الكلام من رجل كان بعد ذلك تتنزَّل الملائكة في الليل لسماع تلاوته ، ولكنه البون الشاسع بين الضلال والهداية ، والفرق الواضح بين استخدام طاقات العقل فيما خُلق لأجله وبين تغطية العقل بحجاب كثيف من التقليد الأعمى .

« قال : فقال له مصعب : أوَ تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره ؟ قال : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليهما » .

وهنا تبدو الحكمة البالغة في الدعوة ، والمقدرة الفائقة في محاولة تحطيم الحجاب الفكري الذي كان يحول بين أسيد وأمثاله ، ومحاولة التفكير في الحق ، من غير عنف ينفِّر من سماع الحق ولا ضعف يهوِّن من شخصية ممثليه .

لقد علق الأمر على رضاه وسخطه ، ورتب على الرضى قبول الحق ، وعلى السخط الاستعداد بإبعاد مصدر الكراهية والأذى الذي كان يتصور وجوده وإن كان هو الحق .

وهذا من التنزل مع المخالفين وهو نوع من الحكمة في الدعوة ولذلك لم يجد أسيد بن حضير بدّاً من قبول هذا العرض الذي لم يشعر بأنه أجبر عليه وإنما أصبح معلقاً على كامل حريته ورضاه ، فوصف هذا العرض بأنه عين الإنصاف والعدل وجلس لسماع كلامه .

قال : « فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن فقالا – يعني

مصعب وأسعد - فيما يذكر عنهما : والله لَعَرفْنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهُّله ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ، فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه وتشهَّد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين » .

وهكذا دخل أسيد بن حضير في الإسلام بهذه السرعة والسهولة حينما شرح الله صدره للهداية ، وَوُفِّق برجل حكيم عرض عليه الإسلام .

قال : « ثم قال لهما : إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم » . وإنما عرف ذلك لأن نور الهداية يسطع في الوجه أول ما يلامس الهدى قلب المهتدي ، وكون الإنسان يقبل على أمر عظيم يُعرف في وجهه ، ولا أعظم من إقبال الإنسان على سلخ دينه المتوارث ودخوله في دين الحق .

قال : « فلما وقف على النادي قال له سعد : مافعلت : قال : كلمت الرجلين فو الله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حُدِّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك » .

وهكذا أراد أسيد أن يشركه قومه في هذا الخير العظيم الذي هداه الله إليه وهويعلم أن سعد بن معاذ لو أسلم لم يختلف عليه اثنان من قومه لسيادته العظيمة فيهم فأراد أن يجذبه إلى الإسلام لينقله وقومه إلى الخير ، فوفقه الله إلى هذه الحيلة التي استطاع بها أن يغطّي على سمات الإسلام الظاهرة على وجهه التي أدركها سعد بن معاذ ، وذلك لأن أسيداً يريد أن يسمع سعد من مصعب بن عمير قبل أن يعلم بإسلامه خشية أن تأخذه العزة ويهيمن عليه حجاب التقليد قبل أن يصل إلى مُبلِّغ الدعوة ليسمع منه كلام الله تعالى الذي تأثر به ، فنقله فوراً إلى تركيز كل طاقته الفكرية حول هذا الخبر الذي اختلقه ليصل منه إلى ما يريد من هدايته .

« قال : فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة فأخذ الحربة من يده ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئاً ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعد مطمئنَّين عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتِّماً ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة أما والله لولا مابيني وبينك من القرابة مارُمْت هذا مني ، أتغشانا في دارنا بما نكره ؟ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير : أي مصعب جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لايتخلفْ عنك منهم اثنان .

قال : فقال له مصعب : أوَتقعد فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟ قال سعد : أنصفت ، ثم ركز

الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالا : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، لإشراقه وتسهُّله .

ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟ قالا : تغتسل فتَطَهَّر وتُطهِّر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، قال : فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهَّد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير .

وهذا هو الموقف العظيم الذي خطط له أسيد والذي كان ينتظر نتائجه لعلمه بمكانة سعد العالية في قومه .

قال : فلما رآه قومه مقبلاً قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يابني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله » .

وهذه كلمة عظيمة تدل على إيمان قوي ويقين راسخ وشجاعة فذة وحزم نافذ ، فما أعظم آثار الهداية في النفوس !!

قبل ساعات قلائل كان سعد يهدد دعاة الحق ليحمي ماهو مقتنع به من الباطل ، ثم لما هداه الله تعالى صار يهدد كل من ظل على الباطل من قومه ولم يتبع سبيل الحق .

« قال : فو الله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة » [1] .

وهكذا تحقق أمل أسعد بن زرارة حينما ذكر أنه لو أسلم سعد لم يتخلف عنه قومه رضي الله عنهم أجمعين .

وإننا في هذا الخبر المثير بقدر مانُقَدِّرُ لأسعد بن زرارة ومصعب بن عمير جهودهما في مجال الدعوة إلى الله تعالى فإننا نقدر لسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سرعة استجابتهما لهذه الدعوة مع ما يتمتعان به من سيادة وعزة .

إن النفوس البريئة من اتباع الهوى المتجردة لطلب الحق تتأثر سريعاً بنداء الحق إذا وُجد من يحسن عرضه على الناس ، ويحاول أن يجذبهم إلى النور الذي هداه الله تعالى إليه .

وهكذا دخل هؤلاء السادة في الإسلام بهذه السهولة ، ولقد كان مما هيأه الله تعالى لرسوله ولدينه أن حرب « بعاث » التي سبقت الهجرة بخمس سنين قد أفنت عدداً كبيراً من سادة الأوس والخزرج الكبار ، والكبار الذين ترسخت فيهم السيادة يتمسكون عادة بموروثاتهم التي هي مؤهلات سيادتهم ، ويرون أنه من العيب والنقص أن يتحولوا تابعين

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥١ - ٥٤ .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق بإسناده وذكر مثله ٢/ ٣٥٧ .

وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني مرسلا وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ٤١ - .

بعدما كانوا متبوعين ، فبقي أغلب السادة في القبيلتين من الصف الثاني الذين مازالوا في سن الشباب أو قد دخلوا في الكهولة كهذين السيدين الجليلين سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، فكانوا أسرع إلى الاستجابة لدعوة الإسلام .

وفي هذا المعنى تقول عائشة رضي الله عنها « كان يوم بعاث يوماً قَدَّمه الله لرسوله ﷺ ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا ، فقدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام » [١] .

وقد كان من الكبار الذين سلموا يوم بعاث عبد الله بن أبي ابن سلول الذي كان مؤهلا لسيادة القبيلتين فمنعه كبرياؤه وحسده من الدخول في الإسلام وأصبح زعيم المنافقين إلى أن مات .

* * *

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٧٧٧ و ٣٨٤٦ (٧/ ١١٠ ، ١٥٦) .

١٢ - فهم دقيق وإيمان عميق وتضحية خالدة

(بيعة العقبة الثانية)

إن سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم كلها مواقف رائعة ، وإن من أبرز هذه المواقف موقف الأنصار رضي الله عنهم حينما بايعوا رسول الله ﷺ على حمايته حتى يبلِّغ رسالة ربه ، وإن كلفهم ذلك أموالهم وأنفسهم .

وقد أخرج ابن إسحاق رحمه الله خبرهم في السيرة فيما رواه عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال بعدما ذكر خروجهم من المدينة إلى مكة : « ثم خرجنا إلى الحج ، فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق ، قال : فلما فرغنا من الحج وكانت الليلةُ التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيد من سادتنا ، أخذناه معنا وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه وقلنا له : يا أباجابر إنك سيد من سادتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ، ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً » .

وهنا نقف قليلاً لنتأمل هذا الأسلوب البارع في الدعوة إلى الله ، ومانتج عنه من سرعة في الإجابة وقوة في التأثير .

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم حينما أرادوا دعوة عبد الله بن حرام رضي الله عنه نادوه بكنيته ، والنداء بالكنية تكريم للرجل عند العرب ورفع من قدره .

ثم أثنوا عليه بأنه سيِّد من ساداتهم وشريف من أشرافهم ، والثناء على الرجل الكريم يُقلِّص من نفسه الأنانية والتعصب للذات ، ويفتح فكره لتقبل الأمور العالية وإن خالفت هوى النفس في بداية الأمر . لأن الثناء على الكريم يُشبع رغبته في النظر إلى حظ النفس من غير طغيان نحو الكبرياء ولاجنوح نحوالغَضِّ من شأن الآخرين ، فتكون مكافأته نحو من أسدى إليه هذا الجميل أن يلين في يده ويسمع قوله لأن كرمه يمنعه من أن يرد من تواضع له وأثنى عليه من غير أن يحقق له مايريد أو بعض ما يريد .

« قال : فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا ، نُسَيبة بنت كعب أمّ عمارة ، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي ، إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع » .

وهذا نوع رفيع من التخطيط المنظم والتدبير المحكم حيث يتسلل خمسة وسبعون من بين أظهر المشركين ويجتمعون في مكان واحد من غير أن يشعر بهم أحد .

ولاشك أن هاتين المرأتين اللّتين شهدتا معهم البيعة قد بلغ الإيمان

لديهما من القوة إلى الحد الذي دفعهما إلى ركوب المخاطر والمجازفة بالنفس لتشهدا مشهداً عظيماً طالما تاقت نفوس المؤمنين إليه ، وذلك بسماع كلام من هو أعز عليهم من أنفسهم ﷺ .

قال : فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحبّ أن يحضر أمرَ ابن أخيه ويتوثّق له . فلما جلس كان أوّلَ متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يامعشر الخزرج - قال : وكانت العرب إنما يسمُّون هذا الحيَّ من الأنصار : الخزرج ، خزرجها وأوسها - إن محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وماتحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فَمنَ الآن فَدَعُوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

قال : فقلنا له قد سمعنا ماقلتَ ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

قال : فتكلم رسولُ الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغَّب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » .

وهكذا جاءت هذه البيعة مختصرة في رواية كعب بن مالك رضي الله عنه ، وجاءت مبسوطة في رواية عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وذلك فيما رواه الإمام البيهقي بإسناده عن عبيد بن رفاعة قال : قَدِمَتْ روايا خمر فأتاها عبادة بن الصامت فخرقها ، وقال : إنا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن نقول في الله لاتأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب بما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة ، فهذه بيعة رسول الله ﷺ بايعناه عليها »[1] .

وفي هذا الأثر دلالة واضحة على ما لهذه البيعة من أثر عميق في نفوس أصحابها .

وقد يقال : لماذا يطلب النبي ﷺ الحماية من البشر وهو يعلم أن الله تعالى قادر على أن يحميه بالملائكة عليهم السلام أو بدونهم ؟ فيقال : إن النبي ﷺ مشرِّع لأمته وهو قُدْوَتُهم في أقواله وأفعاله ، فهو يسير في دعوته في السلم والحرب في حدود ما يستطيعه البشر العاديون .

وإذا كان الأنبياء عليهم السلام - على جلالة قدرهم - بحاجة إلى حماية من المؤمنين الصادقين فإن الدعاة إلى الله تعالى الذين ورثوا هذه الدعوة من رسول الله ﷺ أحوج إلى هذه الحماية .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٥١ - ٤٥٢ .

إن الدعاة المصلحين يواجهون أهل الباطل والإفساد ، وقد يتعرضون للأذى على أيديهم ، فهم بحاجة ماسة إلى أن يقوم أهل التقوى بحمايتهم وتأييدهم حتى ينجحوا في مهمتهم ، وقد تكون جهود هؤلاء أكبر من جهود المصلحين ، لأن جهود أهل الإصلاح إنما تتم بحمايتهم ، وبهم تعمر الدعوة ويثمر الإصلاح .

«قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا [1] ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة [2] ورثناها كابراً عن كابر » .

وهذا مثال عال من المواقف الإيمانية التي تتلاشى فيها المصالح الذاتية في سبيل خدمة المبدإ السامي والدفاع عنه ، فلقد تكفل هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم بحماية النبي ﷺ بما يحمون به نساءهم ، وهذا أبلغ مستوى يمكن تصوره من النصرة لأن الإنسان يبذل في حماية عرضه من الطاقة ما لايبذله في حماية نفسه .

ولقد صدقوا رضي الله عنهم فيما تكفلوا به ، فحموا رسول الله ﷺ ومنعوه من أعدائه ، وناصروا دين الإسلام بكل ما أوتوا من قوة ، حتى استحقوا بجدارة لقب « الأنصار » .

« قال : فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو

---

(١) أي نساءنا هو جمع إزار .

(٢) الحلقة بفتح اللام وسكونها اسم للسلاح كله .

الهيثم بن التَّيِّهان فقال : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً [1] وإنا قاطعوها - يعني اليهود - [2] فهل عسينا إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟! قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » .

وقوله « بل الدم الدم » يعني من طلب دمكم فقد طلب دمي ، وقوله « والهدم الهدم » يعني القبر والمنزل ، والمعنى : أُقْبَر حيث تقبرون .

وهكذا كان هذا الاعتراض الوجيه من أبي الهيثم بن التيهان سببا في بروز هذا الموقف الجليل من رسول الله ﷺ حيث أعلن بهذا الكلمات القوية أن موطن المسلم ليس هو الذي ولد فيه وعاش فيه آباؤه من قبل ، وإنما هو الذي يستطيع أن يعبد ربه فيه بحرية ، وأن يطبق فيه الإسلام كاملاً ، ومن هذا المنطلق كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام .

لقد كان رسول الله ﷺ يحب مكة حبا عظيما ، وقد سجل هذا الحب بقوله : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليَّ وإلى

---

(١) الحبال العهود .

(٢) يهود المدينة .

الله ، ولولا أني أُخرجت منك ماخرجت » أخرجه الإمام الترمذي وابن ماجه والدارمي[1] .

ولكن حبه لها لايعني بقاءه فيها والطغيان يَحكُمها ، ويحُول بينه وبين حرية الدعوة ، وتطبيق الإسلام كاملاً ، ولذلك سعى في وقت مبكر في عرض نفسه على القبائل علّه يجد قبيلة تأخذه معها وتنصره حتى يبلغ رسالة ربه ويطبق شريعته .

هذا وقد أصبح رسول الله ﷺ بهذا الموقف قدوة عليا لمن جاء بعده من الدعاة ومرُّوا بمثل هذا الوضع ، ومن ذلك ما جرى بين الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود رحمهما الله ، حيث وجه له محمد بن سعود أثناء البيعة والتعاقد على نصرة دعوة التوحيد نفس التساؤل ، فرد على الشيخ بنفس جواب رسول الله ﷺ .

هذا وإننا لنلحظ في اعتراض أبي الهيثم بن التَّيِّهان نموذجا من الحرية العالية التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام ، حيث عبر عما في نفسه بكامل حريته ، مع أنه كان يخاطب رسول الله ﷺ والحال أن أبا الهيثم بن التَّيِّهان يقطع جازماً بأن رسول الله ﷺ لن يسلك معهم إلا ما فيه خيرهم ، ولكنه خشيَ أن يَبُرَّ بهذا الخير قومه وأن يقدِّمهم عليهم .

لقد كان العرب في جاهليتهم من أعظم الناس في عصرهم حرية

---

(١) سنن ابن ماجه ، المناسك رقم ٣١٠٨ ، جامع الترمذي ، المناقب ، باب ٦٨ ، سنن الدارمي ، السير ، باب ٦٦ .

ولكنهم مع ذلك كانوا مأسورين لإرادة كبرائهم وسادتهم ، فأخرجهم الإسلام من هذا الأسر ليكونوا جميعاً عباداً لله تعالى ولا يستعبد بعضهم بعضاً .

هذا ولما تمت البيعة أراد رسول الله ﷺ أن يؤكدها باختيار مجموعة من أولئك المبايعين يكونون قادة لقومهم يكفلونهم في الاستمرار بالعمل فيما تمت عليه البيعة والنشاط في الدعوة وتطبيق الإسلام ، يقول كعب بن مالك في روايته المذكورة : « وقد كان رسول الله ﷺ قال : أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بمافيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس » .

وقد ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء النقباء وأنسابهم وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء ابن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، فهؤلاء التسعة من الخزرج ، ومن الأوس أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن عبد المنذر [1] .

قال ابن إسحاق : « فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ

---

(١) قال ابن هشام : وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التَّيِّهان ولا يعدون رفاعة ، وذكر قصيدة لكعب بن مالك يتحدى فيها زعماء أهل مكة ويبين لهم أن الرهط الذين بايعوا لن ينقضوا بيعتهم ، وذكر أسماء النقباء فذكر أبا الهيثم بن التيهان ولم يذكر رفاعة بن المنذر .

قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا : نعم » .

وفي هذا النص حدد النبي ﷺ مهمة النقباء ، وهي أن يكفلوا له قومهم فيما يتعلق ببنود البيعة خاصة ، وبكل ما يتعلق بالالتزام بالدين والدعوة إليه والجهاد في سبيله عامة .

ثم إن النبي ﷺ أعطى هذه المهمة قدراً كبيراً من الأهمية حينما شبه هؤلاء النقباء بالحواريين الذين كانوا مع عيسى عليه السلام ، وذلك فيما إذا شعروا بأنهم حلقة في سلسلة ذهبية رافقت الأنبياء عليهم السلام ، ثم زاد الأمر أهمية حينما اعتبر نفسه ﷺ كفيلا على قومه ، وفي ذلك توثيق لأهمية هذا التكليف حيث يكون طرفاً آخر في المسئولية ، كما أن فيه رفعاً لمعنوية هؤلاء النقباء حيث يشاركون رسول الله ﷺ في هذا التكليف ، إضافة إلى رفع ماقد يتوهمه بعض الناس من احتمال نقص الثقة بالمشاركين في تلك البيعة ، فما أعظم هذا التكليف ! وما أبلغ هذا التوجيه النبوي ! .

هذا وإن من أهم فوائد تحديد المسئولين أن ذلك مما يكفل نجاح القضية ، لأن بقاء المسئولية عائمة وسط جمع كبير قد يجعل الأذهان كلها مفرغة من الشعور بالمسئولية وأداء الواجب ، لإمكانية شيوع التواكل بينهم ، بحيث يعتمد كل واحد منهم على أن الآخرين قد قاموا بالأمر المطلوب ، فإذا تركزت المسئولية في أفراد معروفين ، فإن كل واحد منهم يشعر بمسئوليته في حدود قبيلته أو في فرع من فروعها .

والإنسان المؤمن بموجب إيمانه وإخلاصه لابد أن يفكر في الأمور التي تكفل نجاح دعوة الإسلام ، والأمور التي تكون سبباً في إخفاقها ، ولكن حينما يكون مسئولاً فإن تفكيره في هذا الموضوع يتضاعف بقدر مسئوليته ، وذلك أدعى إلى الظفر بالنجاح ، والسلامة من الإخفاق .

« قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عُمَر بن قتادة : أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم : قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكَت أموالكم مصيبةً وأشرافُكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله - إن فعلتم - خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهكَة الأموال ، وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفَّينا بذلك ؟ قال : الجنة ، قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه » .

وهذا النص يهدينا إلى الهدف السامي الذي يجب أن يكون ماثلاً أمام كل مسلم وهو يقوم بأي عمل في خدمة الإسلام ، ذلكم هو طلب الفوز بالجنة الذي يترتب على ابتغاء رضوان الله تعالى .

وفي هذا النص دلالة واضحة على أن الصحابة رضي الله عنهم قد

تجردوا لإرادة الآخرة ، ولم يعتبروا الدنيا إلا عرضًا موصلاً للآخرة ، وهذا هو سر نجاحهم في الدنيا وانتصاراتهم الباهرة .

هذا وإن مبايعتهم رسول الله ﷺ على حرب الأحمر والأسود ، وقتل أشرافهم ونهك أموالهم دليل على قوة إيمانهم ، ووعيهم لما يتطلبه الإيمان الحق بهذا الدين .

فالذي يؤمن بهذا الدين كاملاً ويعلم بأن عليه أن يطبقه كاملاً ، وأن يدعو الناس إلى الإيمان به وتطبيقه لابد أن يكون في وعيه وإدراكه أن كثيرين من الناس سيعادونه ويقاومون دعوته ، لأن الإسلام يقاوم في بعض تشريعاته أهواءهم ، ويقضي على أحلامهم وتطلعاتهم المنحرفة ، ولابد أن يكون في تخطيطه وحساباته أن هؤلاء سيتصدون لدعوته بالقوة إذا لزم الأمر ، وأن عليه أن يقاوم ويجاهد حتى تعلو كلمة الله تعالى ، ويتم تطبيق الإسلام .

وهكذا فكر أولئك الصحابة رضي الله عنهم ، وخططوا لما يمكن أن يكون مستقبلاً مع حداثة عهدهم بالإسلام بينما نجد السواد الأعظم من المسلمين في هذا العصر وقد مر على كثير منهم عقود من الزمن وهم يطبقون مافهموه ووعوه من الإسلام .. نجدهم لايفكرون في جهاد الأعداء ولايحسبون حساباً لإمكانية غزو الأعداء بلادهم ، وإن من أهم أسباب ذلك أنهم ورثوا الإسلام على فهم ناقص ووعي قاصر ، فظلوا حياتهم على هذا القصور في الفهم والوعي ، وأصبحوا ينكرون أي دعوة

تدعوهم إلى فهم الإسلام كاملاً وتطبيقه كاملاً كما جاء من عند الله تعالى ، ولذلك تقلص مفهوم بعض التكاليف الشرعية في أذهانهم التي من أبرزها الجهاد في سبيل الله تعالى .

وهكذا تمت بيعة أهل المدينة بعدما فهموا مقاصد الإسلام وأدركوا ما يطلبه الإسلام منهم .

وأما رأس الشر في هذا العالم الذي كُتبَ عليه أن يعاصر الشر من أوله إلى آخره في حياة بني آدم ، وهو إبليس اللعين فإنه لم يكن غائباً عن ذلك الاجتماع المبارك ، ولو شاء الله لحال بينه وبين ذلك ، لكن الله جل وعلا أراد له أن يطّلع ، وأن يمتلئ قلبه غيظاً وحقداً ، وأن يقوم بما قام به من الإعلان عن ذلك الاجتماع ، ثم لايكون لإعلانه أي أثر في نقض شيء مما تم فيه .

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه في روايته المذكورة : « فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجباجب - - والجباجب المنازل - : هل لكم في مذمَّم والصُّباء معه (١) ، قد أجمعوا على حربكم ، قال : فقال رسول الله ﷺ : هذا أزَبُّ العقبة ، هذا ابن أزْيَب (٢) أتسمع عدو الله : أما والله لأفرغن لك .

---

(١) يريد بمذمَّم : محمداً صلى الله عليه وسلم كما كان المشركون يسمونه سخرية به ، والصباء : جمع صابئ يعني المسلمين سموهم بذلك لخروجهم عن دين قومهم .

(٢) قال ابن هشام : ويقال ابن أُزَيْب .

وجاء في رواية أخرجها الطبراني : « وصرخ الشيطان من رأس الجبل : يامعشر قريش هذه الخزرج والأوس تبايع محمداً على قتالكم، ففزعوا عند ذلك وراعهم ، فقال رسول الله ﷺ : لايرُعْكم هذا الصوت فإنه عدو الله إبليس ليس يسمعه أحد ممن تخافون ، وقام رسول الله فصرخ بالشيطان : يا ابن أَزَبّ هذا عملك فسأفرغ لك .

ذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني هكذا مرسلاً وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف [1] .

هذا وإن موقف رسول الله ﷺ في ثباته وتهديده الشيطان دليل على قوة قلبه وشجاعته ، وعلمه اليقيني بضعف كيد الشيطان أمام قوة إيمان المؤمنين الموصولين بحبل الله المتين ، وإذا كان النبي ﷺ قد أخبر بأن الشيطان يفر من عمر كما سيأتي فكيف يقف لرسول الله ﷺ ؟! .

قال كعب بن مالك في هذه الرواية : «ثم قال رسول الله ﷺ : ارْفَضُّوا إلى رحالكم ، قال فقال له العباس بن عبادة بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلَنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا ! قال فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، قال : فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا » .

وهذا الإقدام الرائع والتطلع السريع للجهاد دليل يضاف إلى ما سلف ذكره على قوة إيمان أولئك الصحابة حيث تخطوا مرحلة الالتزام

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٤٧ .

الخاص ، والدعوة إلى الإسلام ، إلى مرحلة الجهاد في سبيل الله تعالى، وبهذا التوثب نحو معالي الأمور والاستعداد المبكر لمقارعة الأعداء كان قسط كبير من نجاح هؤلاء المؤمنين في نزالهم مع الأعداء بعد ذلك .

وفي قول رسول الله ﷺ « لم نؤمر بذلك » تركيز تربوي على أمر مهمّ وهو أن الدفاع عن الإسلام ، والتعامل مع أعداء هذا الدين ليس متروكاً لاجتهاد اتباعه وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى وتشريعاته الحكيمة ، فإذا شرع الجهاد فإن أمر الإقدام أو الإحجام متروك لنظر المجتهدين بعد التشاور ودراسة الأمر من جميع جوانبه .

هذا وبالرغم من كون أولئك المسلمين من الأوس والخزرج يشكِّلون جماعة كبيرة بالنسبة لذلك الزمن فقد وصلوا إلى مضارب قومهم ولم يشعر بهم أحد ، ومن غير شك أنهم تسللوا متفرقين كما جاؤوا حتى لايلفتوا الأنظار بجماعتهم .

ومما يدل على أن قومهم لم يشعروا بهم ماكان من جواب قومهم من المشركين لمشركي مكة حينما اتهموهم بالتخطيط لإخراج رسول الله ﷺ إلى المدينة والاتفاق معه على حربهم كما جاء في هذه الرواية حيث يقول كعب بن مالك : « فلما أصبحنا غدت علينا جلَّة قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا : يامعشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله مامن حَيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ،

قال : فانبعث مَنْ هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه ، قال : وقد صدقوا ، لم يعلموه : قال : وبعضنا ينظر إلى بعض .

قال : ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وعليه نعلان جديدتان ، قال : فقلت كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا : يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش ؟ قال : فسمعها الحارث ، فخلعهما من رجليه ، ثم رمى بهما إليّ وقال : لتَنْتَعلَنَّهما ، قال : يقول أبو جابر : مَهْ احفظت والله الفتى [1] فاردد إليه نعليه ، قال قلت : والله لا أردهما ، فأل والله صالح ، لئن صدق لأسلبنَّه » .

هذا وإن معرفة مشركي مكة بلقاء تم بين الرسول ﷺ ومسلمي المدينة قد يكون لأن بعضهم أحسوا ببعض الاتصالات الأخرى التي تمت بزيارة فرد أو أفراد لرسول الله ﷺ إن كان وقع شيء من ذلك ، حيث لم يحدِّد المشركون مكان ولازمان هذا اللقاء الذي ارتابوا منه .

أما صياح الشيطان من فوق الجبل فمن المؤكد أنهم لم يسمعوه لقول رسول الله ﷺ السابق : « لايرعُكم هذا الصوت فإنه عدو الله إبليس ، ليس يسمعه أحد ممن تخافون » وهذا من دلائل نبوته ﷺ حيث أخبر

---

(١) يعني اكفف فقد أغضبته .

بشيء لايمكن معرفته إلا بإعلام الله تعالى إياه بذلك ، كما أنه مَعْلَم من معالم معية الله تعالى لأوليائه بالحماية والتأييد .

ومن الحكَم البالغة في سماع المسلمين ذلك الصوت وحجبه عن الكافرين مع أن الشيطان قد وجهه إليهم تقوية إيمان أولئك المؤمنين والربط على قلوبهم وهم يستقبلون واقعا مليئا بالابتلاءات والتضحيات .

ومما يدل على عدم سماع المشركين ذلك الصوت أن المسلمين وصلوا إلى مضارب قومهم وباتوا تلك الليلة من غير أن يشعر بهم أحد ، ولو كان المشركون سمعوا ذلك الصوت لهبُّوا من نومهم وسارعوا إلى مضارب الأوس والخزرج لمعرفة حقيقة ماجرى .

وقول كعب عن نعلي الحارث بن هشام لاقيمة له بحد ذاته ، ولكن قيمته في أن كعبا أراد أن يُشغل القوم بواقعة حاضرة ، هي وإن كانت صغيرة إلا أنها تشغل تفكيرهم عن قراءة ماقد يظهر على وجوه بعض المؤمنين من انفعال يوحي بأن لديهم معرفة بما وَجَّه إليهم القرشيون من اتهام ، وقد انشغلوا بها فعلاً ، ما بين كرم فياض من ذلك القرشي وعتاب من أبي جابر عبد الله بن حرام لكعب بن مالك ، فحصل ما أراده كعب من تلك المشاركة .

هذا وإن في قول كعب حينما ألقى إليه الحارث بن هشام نعليه : «فَأل صالح ، لئن صدق الفأل لأسلبنه » لفتة جليلة تدلنا على نموذج مما كان يدور في أفكار أولئك الصحابة الكرام ،حيث ذهب فكر ذلك

الصحابي فوراً إلى الجهاد في سبيل الله تعالى فقارن بين حصوله على نعلي ذلك الرجل وبين أخذ سلبه إذا قتله في المعركة ، وهذا يعطينا تصورا واضحا لبروز الروح الجهادية لدى المسلمين آنذاك ، والتي نجحوا بها في إقامة دولة الإسلام الكبرى .

إن نجاح كل أمة يترتب على مايدور في أفكار أفرادها بشكل ضاغط يُحوِّل تلك الأفكار إلى قضية تشغل بالهم وتستحوذ على تفكيرهم ، وبقدر ضخامة هذه القضية ، وطموح أصحابها نحو السمو إلى المعالي يكون تقدم تلك الأمة ، وبقدر ضآلة القضية وتقاعس أصحابها يكون تخلف تلك الأمة .

والآن بعد أن عرفنا تشكك زعماء مكة في ذلك الخبر ، فهل استمروا على ذلك الارتياب ؟

إن آخر الرواية يفيد بأن ارتيابهم استمر وأنهم تأكدوا من الخبر ولكن بعد رحيل حجاج المدينة ، يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: «ونفر الناس من منى ، فتنتطّس القوم الخبر [١] فوجدوه قد كان ، وخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر ، والمنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وكلاهما كان نقيبا ،فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجُمَّته ، وكان ذا شعر كثير .

---

(١) يعني استقصوه وتحروا عنه .

قال سعد : فو الله إني لفي أيديهم إذ طلع عليهم نفر من قريش فيهم رجل وضيء أبيض شعشاع حلو من الرجال ، قال فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا ، قال فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة ، قال : فقلت في نفسي : لا والله ما عندهم بعد هذا من خير [(١)].

قال : فو الله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي رجل ممن كان معهم [(٢)] فقال : ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولاعهد ؟ قال قلت : بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مُطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تُجَّاره ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر مابينك وبينهما ، قال : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما عند الكعبة ، فقال لهما : إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جوارا ، قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة ، قالا : صدق والله إن كان ليجير لنا تُجَّارنا ، ويمنعهم أن يظلموا ببلده ، قال : فجاءا فخلَّصا سعدا من أيديهم فانطلق [(٣)] .

---

(١) وهذا الرجل هو سهيل بن عمرو كما ذكر ابن إسحاق .

(٢) وهو أبو البَخْتَري بن هشام كما ذكر ابن هشام .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٦ – ٦٩ .

وأخرجه الإمام أحمد بنحوه [1] وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع [2] .

وأخرجه الحاكم وذكر نحوه وقال : هذا حديث صحيح جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه وأقره الذهبي[3] .

وأخرجه الإمام أحمد والبزار من حديث جابر رضي الله عنه وذكر نحوه ، ذكره الهيثمي وقال : ورجال أحمد رجال الصحيح [4] .

لقد أظهر الكفار شراستهم وانتقامهم حينما ظفروا بواحد من مسلمي المدينة ، ولم يخلصه منهم إلا معرفته باثنين من أشرافهم كان يحمي تجارهما إذا قدموا المدينة .

وهكذا كانت حياة المشركين في مكة حيث يتزعمهم مجموعة من الطغاة ، كانوا يعتبرون أنفسهم سادة البلد ، ويحترم بعضهم بعضاً غاية الاحترام ، ويحفظ بعضهم حقوق بعض ، ومبادئهم التي يرجعون إليها ويقدسونها تخضع لمصالحهم الشخصية ، فهذا سعد بن عبادة قد قبضوا عليه بتهمة التآمر على مقدساتهم التي يعظمونها ، وعذبوه من أجل

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٤٦٠ - ٤٦٢ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٤٥ .

(٣) المستدرك ٢/ ٦٢٤ - ٦٢٥ .

(٤) مجمع الزوائد ٦/ ٤٦ .

ذلك ، ثم أفرجوا عنه فوراً حينما تدخل رجلان منهم كان له معروف سابق عليهما .

وهكذا الطغاة في كل زمن يرفعون شعارات وهمية يعتبرونها مبادئ سامية ، يدعون إليها بحماس ، ويدافعون عنها بقوة ، ويحملون الناس على اعتناقها ، ومن خالفهم فيها كان مصيره السجون والتعذيب والتشريد ، ثم يكون هؤلاء الطغاة هم أول من ينقض أنظمة هذه المبادئ إذا خالفت منافعهم الشخصية ، والحق عندهم مارأوه وقرروه ولو كان ذلك مجاملة لواحد منهم ، وقد يغيرون المبادئ التي كانوا يقدسونها إذا فقدت بعض مفعولها ، وينتحلون مبادئ أخرى يرون أنها تحقق لهم قدراً أكبر من التضليل واستغلال غفلة العقول .

والحقيقة الكبرى أن مبادئ هؤلاء المقدسة إنما هي مصالحهم الخاصة، فمن أجلها يشرِّعون ، ومن أجلها ينقضون ماشرعوا ، ومن أجلها يوالون ، ومن أجلها يعادون .

هذا وقد كان لحسان بن ثابت رضي الله عنه موقف يذكر في إسهامه بشعره الرائع في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، وتبكيت المشركين ، وقد قال في خبر ملاحقة المشركين للأنصار شعراً يردُّ به على أحد شعراء المشركين ، وفي ذلك يقول ابن إسحاق : وكان أول شعر قيل قبل الهجرة بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بني محارب بن فهر[1]،

---

(١) ينبغي أن يعلم بأنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه رضي الله عنه .

فقال :

تداركت سعدا عنوةً فـأخـــذته   وكان شفاءً لو تداركت منذرا

ولـو نلته طُلَّت (١) هناك جراحه   وكـــان حرياً أن يُهان ويهدرا

وقد ذكـر ابن إسـحاق أن حسـان بن ثابت رضي الله عنه أجابه بأبيـات منها :

ولستَ إلى سعد ولا المرء منذر   إذا ما مطـايا القوم أصبحن ضُمَّرا (٢)

فـــلا تك كالوسنان يحلم أنه   بقـرية كسرى أو بقـريـة قيصرا

فإنا ومن يُهدي القصائد نحونا   كَمُسْتَبْضع تمـرا إلى أرض خـيبرا (٣)

* * *

(١) أي أهدرت .

(٢) جمع ضامر ، والضامر من الخيل والإبل الخفيف اللحم من التدريب والعمل لا من الهزال .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٩ - ٧٠ .

١٣ – من مغامرات شباب الإيمان

قال محمد بن إسحاق رحمه الله في بيان ماقام به الأنصار بعد عودتهم من بيعة العقبة الثانية : فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها ، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك ، منهم عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سلمة ، وكان ابنه مُعاذ بن عمرو شهد العقبة ، وبايع رسول الله ﷺ بها ، وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة وشريفًا من أشرافهم ، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب ، يقال له : مناة ، كما كانت الأشراف يصنعون ، يتخذه إلهاً يعظمه ويطهره .

فلما أسلم فتيان بني سلمة : معاذ بن جبل ، وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح ، في فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة ، كان يُدلجُون [١] بالليل على صنم عمرو ذلك ، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة ، وفيها عذَرُ [٢] الناس ، منكساً على رأسه .

فإذا أصبح عمرو قال : ويلكم ! من عدا على إلهنا هذه الليلة ؟ قال: ثم يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ، ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه ، فإذا أمسى ونام عمرو عدَوْا عليه ، ففعلوا به مثل ذلك ؛ فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه ، ثم يعدون عليه إذا أمسى ، فيفعلون به مثل ذلك .

---

(١) أي يغيرون في الليل .

(٢) أي أوساخ .

فلما أكثروا عليه ، استخرجه من حيث ألقوه يوماً ، فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ، ثم قال : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه ، فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة ، فيها عذَر من عذَر الناس ، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت فلما رآه وأبصر شأنه ، وكلمه من أسلم من رجال قومه ، فأسلم يرحمه الله وحسن إسلامه .

فقال حين أسلم وعرف من الله ماعرف ، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره ، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كنتَ إلهاً لم تكن ... أنت وكلب وسْط بئر في قَرَنْ

أفٌ لمَلْقاك إلهاً مستَدَنْ ... ألآن فتشناك عن سوء الغبَنْ

الحمد لله العلي ذي المنن ... الواهب الرزاق ديان الدِّيَن

هو الذي أنقذني من قبل أن ... أكون في ظلمة قبر مرتهن

بأحمد المَهْدي النبي المؤتمن (١)

وهكذا رأينا شباب الإيمان معاذ بن جبل ومعاذ بن عمرو بن الجموح

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٧٠ - ٧٢ .

وأصحابهما يحاولون إقناع بعض شيوخ قبيلتهم بالإسلام ، فلما رأوا عمرو بن الجموح مصراً على عبادة صنمه قاموا بتلك الغارات الليلية على ذلك الصنم حيث كانوا يأخذونه ويضعونه في وضع مهين مشين يفهم منه من رآه على تلك الحال أنه حقير لايستحق شيئاً من الاهتمام فضلاً عن العبادة .

لقد ساء هؤلاء الشباب الذين نور الله تعالى بصائرهم أن يروا شيخاً من شيوخهم ما زال يتمسك بأوهام الجاهلية ،ويحجب بصره بظلماتها، فقاموا بتلك المغامرات لإخراجه من ذلك الوضع المزري الذي يحجب عنه سعادة الدنيا والآخرة ، فنجحوا في مهمتهم وكسبوا رجلاً كان له دور بارز في تثبيت الإسلام في قبيلته .

ويصل عمرو بن الجموح قبل أن يهديه الله تعالى إلى وضع يخزي العقل البشري وينحط به إلى أسفل الدرنات من المهانة والذل والسذاجة حيث يضع سيفه على صنمه ويخاطبه طالباً منه أن يدفع الاعتداء عن نفسه ، ولاأدري كيف ينحدر العقل البشري حتى يتصور أن صنماً من الخشب يستطيع أن يدافع عن نفسه ، ولكنه صحا من غفوته وتنبه من غفلته حينما رآه من الغد مجرداً من سيفه مقروناً بكلب ميت مُلْقىً في موضع قذر ، فهل يبقى بعد ذلك أي مسوِّغ لتقديسه وعبادته ؟

فلهذا هداه الله تعالى وقال تلك الأبيات التي يندب حظه فيها مع ذلك الصنم الذي سلب لبه وحوَّله إلى رجل ساذج مغفل .

إن هذا يعتبر مثلاً على سذاجة أفكار أهل الجاهلية ، وانحصار تفكيرهم في مجالات ضيقة محدودة .

كما أنه يعتبر مثلاً على انطلاق تفكيرهم بعد الإسلام في مجالات فسيحة رحبة لاتحدُّها الأرض ولا مفاهيم البشر المعاصرين .

ومقارنة بين نظرة ابن الجموح إلى صنمه حال جاهليته وبين نظرته إليه بعد إسلامه تبين لنا البعد الشاسع بين الجاهلية والإسلام ، والنقلة العالية التي رفع الله تعالى بها المسلمين بعد إسلامهم .

لقد أصبح عمرو بن الجموح رضي الله عنه بعد إسلامه يسابق الشباب إلى ميادين الجهاد في سبيل الله تعالى حتى استشهد يوم أحد ، وذلك بعد حياة إسلامية مليئة بالعبادة والفكر العالي المتطلع إلى بلوغ الهدف الإسلامي النبيل ، وذلك بالظفر برضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

فما أعظم الإسلام منقذاً للبشريه من أوهاق الكفر والضلالة،ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور ! .

* * *

١٤ - مثل من الاهتمام بأمور المسلمين

لقد كان رسول الله ﷺ عظيم الاهتمام بأمور المسلمين الذين دخلوا في الإسلام من أهل المدينة وكان يتابع أخبار أفرادهم بالرغم مما كان يعاني منه هو وأصحابه في مكة من شدة أذى الكفار وحصارهم إياهم ورقابتهم عليهم .

ومن أمثلة هذا الاهتمام الكبير ما أخرجه الإمام البيهقي بإسناده عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، قال: « كانت حواء بنت زيد بن السكن عند قيس بن عبيد الخطيب - كذا قال وإنما هو ابن الخطيم بالمدينة - وكانت أمها عقرب بنت معاذ أخت سعد بن معاذ ، فأسلمت حواء ، فحسن إسلامها ، وكان زوجها قيس على كفره ، فكان يدخل عليها وهي تصلي ، فيؤذيها ، وكان لايخفَى على رسول الله ﷺ أمر يكون بالمدينة إلا بلغه وأُخبر به .

قال قيس فقدمت مكة في رهط من مشركي قومي حُجَّاجًا ، فبينا نحن [١] إذ جاء رجل يسأل عني فدُلَّ عليَّ فأتاني فقال أنت قيس ؟ قلت نعم قال زوج حواء ؟ قلت : نعم قال فمالك تعبث بامرأتك وتؤذيها على دينها ؟ فقلت : إني لا أفعل ، قال : فلا تفعل ذلك بها دعها لي ، قلت: نعم ، فلما قدم قيس المدينة ذكر ذلك لامرأته وقال فَشَأْنَك بدينك فو الله ما رأيته إلا حَسَنَ الوجه حَسَنَ الهيئة [٢] .

---

(١) هكذا جاء في الرواية وقد سقط منها بيان الحال التي كانوا عليها .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٥٥ - ٤٥٦ .

١٥ - الهجرة إلى المدينة النبوية

لقد كان العهد المكي منذ أن أعلن رسول الله ﷺ دعوته حافلا بصنوف الأذى لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من المشركين الذين كانوا يسيطرون على مكة المكرمة كما تقدم ذكر أمثلة لذلك .

ولقد كان موقف الرسول ﷺ وأصحابه إزاء ذلك هو الصبر الجميل وانتظار الفرج من الله تعالى .

ولقد حصل نوع من الفرج لبعض الصحابة بالهجرة إلى الحبشة ولكن تلك الهجرة لم تكن شاملة لجميع المسلمين ، كما أنه لم يُقصد منها إقامة دولة الإسلام في تلك البلاد .

ولما أن بلغت الدعوة في مكة نهايتها واستنفدت مقاصدها أذن الله تعالى لرسوله ﷺ وللمسلمين بالهجرة إلى المدينة النبوية بعد أن انتشر الإسلام فيها وأصبح المسلمون من أهلها هم أصحاب القوة والغلبة .

ولقد أخبر النبي ﷺ المسلمين بدار هجرتهم التي قدرها الله تعالى لهم ، ومما جاء في ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة : يثرب » [١] .

وجاء في حديث آخر أخرجه الإمام البخاري من حديث عائشة

---

(١) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار باب ٤٥ (٧/٢٢٦) .

رضي الله عنها قالت : فقال النبي ﷺ للمسلمين : « إني أُريتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان . فهاجر من هاجر قبلَ المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : على رسْلك ، فإني أرجو أن يُؤْذن لي . فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليَصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر - وهو الخَبَط - أربعة أشهر (١) .

ولقد وجه النبي ﷺ أصحابه إلى الهجرة وأمرهم بها .

أخرج ابن سعد من طريق شيخه محمد بن عمر الواقدي قال : حدثني معمر بن راشد عن الزهري عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالا : لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ ، طابت نفسه وقد جعل الله له منعة وقوماً أهل حرب وعُدة ونجدة ، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج ، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة ، فقال : قد أريت دار هجرتكم ، أُريت سبخة ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان ، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي .

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٩٠٥ (٧/ ٢٣١) .

ثم مكث أياماً ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال : قد أُخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها ، فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك ، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبوسلمة بن عبد الأسد ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت حثمة ، فهي أول ظعينة قدمت المدينة .

ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً [1] فنزلوا على الأنصار في دورهم ، فآووهم ونصروهم وآسوهم ، وكان سالم مولى أبي حذيفة يَؤُمُّ المهاجرين بقباء قبل أن يقدم رسول الله ﷺ ، فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة كَلبتْ قريش عليهم وحَربوا واغتاظوا على من خرج من فتيانهم .

وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ ، في العقبة الآخرة ثم رجعوا إلى المدينة ، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة فهم مهاجرون أنصاريون ، وهم : ذكوان بن عبد قيس ، وعقبة بن وهب بن كلدة،والعباس بن عبادة بن نضلة ، وزياد بن لبيد .

---

(١) أي متتابعين جماعة بعد جماعة .

وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة ، فلم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعلي ، أو مفتون محبوس ، أو مريض ، أو ضعيف عن الخروج [1] .

وأخرج محمد بن إسحاق هذا الخبر مختصراً [2] .

ولقد كانت الهجرة صعبة على المسلمين الذين ولدوا ونشؤوا بمكة ولكنهم هاجروا منها استجابة لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ .

وقد رويت أشعار وأقوال تدل على صعوبة مفارقة الوطن على المهاجرين ، ومن ذلك قول بلال رضي الله عنه :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة ... بوادٍ وحولي إذخر وجَليل

وهل أردَنْ يوماً مياه مجَنَّة ... وهل يبدوَنْ لي شامة وطفيل [3]

ومما جاء من الأشعار التي تصور مشاعر المسلمين حول الهجرة قول أبي أحمد بن جحش رضي الله عنه :

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢٢٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨ .

(٣) صحيح البخاري رقم ٣٩٢٦ .

والإذخر والجليل نوعان من النبات ، ومجنة مكان على بعد أميال من مكة وبه السوق المشهور ، وشامة وطفيل جبلان بمكة (الفتح ٧/ ٢٦٣) .

ولـمـا رأتـني أم أحـمد غـاديـــاً بذمة من أخشى بَغيْب وأرهبُ

تقـول : فـإمَّا كنــت لابـد فاعــلا فيمِّم بنـا الـبلدان ولتُنْأ يثرب

فقلت لها : بـل يثـرب اليوم وجهنا وما يشإ الرحمن فالعبد يركب

إلى الله وجهي والرسول ، ومن يُقم إلـى الله يـوما وجهه لايُخيَّب

فكـم قـد تركنا من حميم مــناصـح ونــاصــحة تبكي بدمع وتندب

ترى أن وتــرْاً نـأْيُنا عــن بــلادنــا ونحن نرى أن الرغائب نطلب[1]

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٤ .

١٦ - هجرة أبي سلمة ومثل من الصبر الجميل

قال ابن إسحاق : فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين ، من قريش ، من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، واسمه عبد الله ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، كان قَدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً .

قال ابن إسحاق : فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة ، عن جدته أم سلمة ، زوج النبي ﷺ قالت : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحَّل لي بعيره ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثم خرج بي يقود بي بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتَنَا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علامَ نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه .

قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة ، فقالوا : لا والله لانترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا . قال : فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة . قالت : فَفُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني .

قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكي ، حتى أمسي سنةً أو قريباً منها ، حتى مر بي رجل من بني عمي ، أحد بني المغيرة ، فرأى مابي فرحمني فقال لبني المغيرة : ألا تُخرجون هذه المسكينة ! فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! قالت : فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت . قالت : وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني .

قالت : فارتحلت بعيري ، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة . قالت : وما معي أحد من خلق الله ، قالت : فقلت : أتبلَّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي ، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، أخا بني عبد الدار فقال لي : إلى أين يابنت أبي أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجي بالمدينة . قال : أو ما معك أحد ؟ قالت : فقلت : لا والله ، إلا الله وبُنيّ هذا .

قال : والله مالك من مَتْرك ، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يَهْوي بي فو الله ماصحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ثم قيده في الشجرة ، ثم تنحى عني إلى شجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ، ثم استأخر عني ، وقال : اركبي ، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه ، فقاده ، حتى ينزل بي . فلم يزل يصنع ذلك بي حتى

أقدمني المدينة فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء ، قال : زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة نازلا فيها - فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

قال : فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة [1] .

في هذا الخبر مثل من قساوة المشركين وفظاظتهم ، حيث لايردَعُهم عن الظلم رادع إلا خوف محاسبة الناس في الدنيا وانتقامهم ، وقد أمنوا حساب الدنيا في معاملتهم لهذه المرأة المسكينة ، وهم لايُؤمنون بحساب الآخرة الذي لايفرق بين قوي وضعيف وشريف ووضيع لأنهم لايؤمنون بالآخرة .

وأخيرا أدركت الرحمة أحد أقارب أم سلمة رضي الله عنها فطالب بإنصافها بدافع من القرابة ، ونجت من يد الأعداء ولكن كيف لها أن تسافر ذلك السفر الطويل وحدها ؟ وهنا يقيض الله تعالى لها عثمان بن طلحة العبدري رضي الله عنه الذي أبت شهامته أن يتركها تسافر وحدها فصحبها طول الطريق وقام بشئونها خير قيام .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨ - ٩١ .

وعثمان بن طلحة هو العبدري حاجب البيت ، أسلم بعد الحديبية وهاجر مع خالد بن الوليد ، وشهد الفتح مع النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاه مفتاح الكعبة - الإصابة ٢/ ٤٥٢ رقم ٥٤٤٢ - .

وإن ظهور هذا السيد الشهم لها واستعداده للسفر معها وهي على أبواب مغادرة مكة دليل واضح على عناية الله تعالى بأوليائه وتسخيره لهم ، فهو جل وعلا الذي سخر قلب ذلك الرجل للعناية بها وبَذْل الجهد والوقت من أجلها .

ومما ينبغي أن يلاحظ أن عثمان بن طلحة لم يكن آنذاك مسلما ، ومع ذلك قدَّم هذه الخدمة الجليلة لامرأة كانت على دين أعدائه ، وهذا مثل مما كان العرب يتصفون به من مكارم الأخلاق ، وخاصة قبيلة قريش التي اختار الله جل وعلا نبيه ﷺ منها .

وقد أسلم عثمان بن طلحة بعد صلح الحديبية وهاجر إلى المدينة بصحبة خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهم .

* * *

١٧ - مثل من فطنة عمر وإيثار إخوانه

(هجرة عمر وخبره مع عياش بن أبي ربيعة)

قال ابن إسحاق : « ثم خرج عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي حتى قدما المدينة ، فحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب ، قال : اتَّعدت ، لما أردنا الهجرة إلى المدينة ، أنا وعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاصي بن وائل السهمي التناضب من أضاة بني غفار [١] فوق سرف [٢] وقلنا : أينا لم يصبح عندها فقد حُبس فليمض صاحباه قال : فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب ، وحُبس عنا هشام ، وفُتن فافتتن .

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ، حتى قدما علينا المدينة ورسول الله ﷺ بمكة ، فكلماه وقالا له : إن أمك قد نذرت أن لايمس رأسها مشط حتى تراك ولاتستظل من شمس حتى تراك فرقٌ لها » .

وهكذا ندرك كيف يبذل دعاة الضلالة من وقتهم وجهدهم وأموالهم في سبيل نصرة باطلهم ومحاولة إخماد دعوة الحق ، حيث خرج أبو جهل وأخوه من مكة إلى المدينة وتحملا عناء السفر من أجل

---

(١) التناضب بكسر الضاد نوع من الشجر تألفه الحرباء ، والأضاة : الغدير ، وأضاة بني غفار على عشرة أميال من مكة - الروض الأنف للسهيلي ١٨٩/٤ - ١٩٠ .

(٢) بفتح السين وكسر الراء هو واد قرب مكة على طريق المدينة ، وقد قام العمران حوله حاليا .

محاولة فتنة فرد واحد عن دينه ، أفلا يتحمل المسلمون مثل هذا الجهد أو أفضل منه من أجل دعوة الناس إلى الرشد واتباع الحق ؟! .

ولقد حاول أبو جهل أن يدخل على عياش من الجانب المؤثر عليه ، حيث ذكر وضع أمه ليكسب موافقته على العودة ، وهو يعلم أن عياشاً من أهل البر والصلة .

وهذا مشهد يبين لنا صورة من مخططات أعداء الإسلام التي يحاولون بها صرف المسلمين عن التمسك بدينهم .

« قال عمر رضي الله عنه في سياق روايته : فقلت له : ياعياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم فو الله لو قد آذى أمَّك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حَرُّ مكة لاستظلت » .

وهكذا كان عمر رضي الله عنه فطناً مدركاً لمكائد الكفار ، فقد تَفَرَّس في وجوه القوم فعرف فيهم الغدر والمكيدة مع ما اشتهر عن أبي جهل قبل ذلك من عداء المسلمين .

وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون حذراً من الكفار وإن أظهروا النوايا الحسنة ، وأن يغلِّب جانب إساءة الظن بهم وأن لايضع ثقته بهم ، لأن الأصل فيهم أنهم لايراعون في مسلم عهداً ولاذمة لشدة حقدهم على الإسلام والمسلمين ، كما قال الله تعالى **﴿ لايرقُبُون في مؤمن إلاً ولاذمة ﴾**[1] أي لايراعون حرمة القرابة ولا الجوار ولا العهد .

---

(١) التوبة / ١٠ .

« قال : فقال - يعني عياش - : أبرُّ قسم أمي ولي هناك مال فآخذه» .

وهكذا استطاع عدو الإسلام أبو جهل أن يخدع عياشا وأن يستميله للموافقة على العودة إلى مكة .

« قال - أي عمر - : فقلت : والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً فلك نصف مالي ولاتذهب معهما ، قال فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلاّ ذلك قال : قلت له : أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقة نجيبة ذلول . فالزم ظهرها . فإن رابك من القوم ريب فانج عليها » .

وهذه تضحية كبيرة من عمر حيث تنازل لعياش عن نصف ماله وهو صاحب المال الكثير في مقابل حمايته من الفتنة في الدين ، وإنَّ بذل المال في سبل الخير دليل على قوة الإيمان ووضوح الهدف الإسلامي العالي ، ألاَ وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة ، وذلك لأن المال من أعز المحبوبات لدى الإنسان فإذا جاد به من أجل الله تعالى فهو من أهل الإيمان الراسخ .

« قال عمر : فخرج عليها - يعني على ناقة عمر - معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبوجهل : يا ابن أخي والله لقد استغلظ عليَّ بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى ، قال : فأناخ ، وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه رباطاً ، ثم دخلا به مكة ، وفتناه فافتتن .

قال ابن إسحاق : فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة : أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهاراً موثقاً ثم قالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا » .

وهكذا تحقق ظن عمر بأبي جهل وأمثاله ، ووقع عياش في مكائد المشركين لأنه وضع ثقته بهم ولم يغلِّب جانب الحذر منهم .

وفي ذلك عبرة للمسلمين حتى لايأمنوا الكفار وإن أظهروا لهم المودة وقدَّموا لهم المعونة فإن ذلك نوع من الطُّعم الذي يصطادون به المسلمين ، كما قال الله تعالى ﴿ **يُرضُونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون**﴾ [1] .

وفي المشهد المؤلم الذي دخل فيه عياش مكة موثقاً ، ووصفه بالسفاهة إمعان من أبي جهل في إذلال المسلمين وتحطيم معنوياتهم ، فكيف يثق المسلمون بالكفار وهم لايريدون بهم إلا الشر .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن أخا أبي جهل الحارث بن هشام قد أسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه وكان له في الجهاد بلاء كبير .

قال ابن إسحاق : وحدثني نافع ، عن عبد الله بن عمر ، عن عمر في حديثه قال : فكنا نقول : ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولاعدلاً [2] ولاتوبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم ! قال :

(١) التوبة / ٨ .

(٢) الصرف : التوبة وقيل النافلة ، والعدل : الفدية وقيل الفريضة . ذكره ابن الاثير في النهاية ، فيكون ذكر التوبة على القول الأول من باب عطف التفسير .

وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، أنزل الله تعالي فيهم ، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم : ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتُنصَرون ، واتَّبعوا أحسن ما أُنزِل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لاتشعرون** ﴾ (١) (٢) .

قال عمر بن الخطاب : فكتبتها بيدي في صحيفة ، وبعثت بها إلى هشام بن العاصي ، قال : فقال هشام بن العاصي : فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى أصعِّد بها فيه وأصوِّب ولا أفهمها ، حتى قلت : اللهم فهِّمنيها ، قال : فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا ، وفيما كنا نقول في أنفسنا ، ويقال فينا . قال : فرجعت إلى بعيري ، فجلست عليه ، فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة (٣) .

وذكر الحافظ الهيثمي نحو هذا الخبر ، وقال : رواه البزار ورجاله ثقات (٤) .

---

(١) سورة الزمر آية ٥٣ - ٥٥ .

(٢) أخرج هذا الجزء من الخبر الحاكم وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي ٢/ ٤٣٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٥ - ٩٨ .

(٤) مجمع الزوائد ٦/ ٦١ .

وقال الحافظ ابن حجر : وأخرج ابن السكّن بسند صحيح عن ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر . ثم ذكر أول الخبر [1] .

وهكذا كانوا يظنون أن مَنْ فَتَنَه الكفار فافتتن ورضي بالعيش معهم أن الله تعالى لايقبل منه توبة حتى نزلت هذه الآيات ففرح بها عمر رضي الله عنه ، وقد كان في همّ وأسف على إخوانه الذين استجابوا لفتنة الكفار فبادر بكتابة هذه الآيات إلى هشام بن العاص .

وقد كان هشام وأمثاله في حالة يأس وقنوط من رحمة الله تعالى لظنهم بأن من كان في مثل حالهم لاتوبة له ، فلما أخذ الصحيفة التي كتبها عمر وقرأ الآيات أصبح في حيرة من أمره إذ أنه لم يكن يتصور أن رحمة الله تعالى تتسع لأمثاله ، فسأل الله تعالى أن يفهمه المقصود من الآية - وإن كان يفهم معناها - فألهمه الله سبحانه أنه وأمثاله هم المقصودون بها فتاب إلى الله تعالى وعزم على الهجرة .

* * *

(١) الإصابة ٣/ ٥٧٢ رقم ٨٩٦٧ .

١٨ - مثل عظيم من الإيثار والتوكل على الله تعالى

بعد أن أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة ورغَّبهم فيها سارعوا إلى ذلك حتى لم يبق من القادرين على الهجرة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما .

وفي ذلك يقول محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى : وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبس أو فُتن إلا عليُّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق رضي الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة ، فيقول له رسول الله ﷺ : لاتعجل لعل الله يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكونه [(١)] .

لقد حبب رسول الله ﷺ الهجرة للمسلمين وحثهم عليها ، ولم يعتبرها مجرد رخصة للخروج من أذى المشركين وحصارهم ، بل اعتبرها عملاً صالحاً يثاب عليه فاعله ثواباً جزيلاً ، فتسابق المسلمون لهذا العمل الصالح وخرجوا جماعات جماعات بتسلُّل واختفاء من المشركين حتى لايحبسوهم وتركوا ما لايستطيعون حمله من أموالهم التي استولى عليها المشركون بعد ذلك .

لقد خرج المهاجرون من وطنهم الذي كانوا يعيشون فيه برغد وسعة

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢ .

إلى ضيق من العيش وضيق في السكن في المدينة طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ ، ليتكوَّن بهم وبالأنصار المجتمع الأول المتكافل الذي قامت به دولة الإسلام فور هجرة الرسول ﷺ .

ولقد كان عجيباً أن يخرج المسلمون من مكة جميعاً ، ولا يبقى فيها من غير المحبوسين والمفتونين غير أبي بكر وعلي بن أبي طالب اللَّذَين بقيا مع رسول الله ﷺ بأمر منه .

وإنه لموقف عظيم من رسول الله ﷺ أن أفرد نفسه من جنوده المخلصين له الذين يفدونه بأرواحهم وهو القائد المستهدف من أعدائه الذين يتربصون به الدوائر ليقتلوه أو يحبسوه ، ولكنه القائد العظيم الذي يكون في ساقة جنوده حتى يحرزهم ، ثم هو من عظمة توكله على ربه جل وعلا موقن بأنه سبحانه معه بنصره وتأييده ولن يسلمه لأعدائه .

ولقد كان بقاء رسول الله ﷺ في مكة حماية للمؤمنين ، فلو أنه هاجر لقضى المشركون على من بقي معلناً إسلامه من المستضعفين .

ولعل بقاءه سهَّل هجرة المؤمنين لمَا كان المشركون يخططون له من قتله ، فلم يعرقلوا هجرة أصحابه ليتم ما أرادوا من الكيد به .

وما حصل من الحبس لبعضهم كعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص كان من أقاربهم المتصلبين في الكفر فلم يشمل ذلك جميع المسلمين .

ولاشك أن هجرة عمر وحمزة وأمثالهما مما يسهل على المشركين تنفيذ مؤامرتهم على رسول الله ﷺ .

ولقد تم كل ذلك بأمر الله تعالى وتوجيهه ليتم ما أراده جل وعلا من هذه الهجرة المباركة التي كانت فتحاً عظيماً للإسلام والمسلمين .

* * *

١٩ - الهجرة النبوية

بعد أن أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة ولم يبق في مكة من القادرين على الهجرة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب كَبُر ذلك على المشركين ورأوا أن خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة يُشكّل خطراً كبيراً على أمْنهم ، فاجتمع زعماؤهم في دار الندوة واتخذوا بعد المشاورة أسوأ وأخطر قرار اتفقوا عليه وهو الإقدام على قتل النبي ﷺ .

١ - قال محمد بن إسحاق رحمه الله : ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً ، وأصابوا منهم مَنَعَة ، فَحذرُوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لاتقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه [١] .

ثم ذكر فيما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما ما تم بينهم من مشاورة ومداولة ، حيث رأى بعضهم أن يحبسوه في الحديد حتى يموت ، ورأى بعضهم أن يخرجوه من بلادهم ورأى بعضهم أن يقتلوه

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢ .

وأن يتولى قتله شباب من قريش حتى يتفرق دمه في القبائل وكان هذا رأي أبي جهل ، وقد استقر رأيهم على ذلك [1] .

وقد ذكر الله سبحانه هذه الآراء الثلاثة بقوله ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتُوك أو يقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [2] .

وجاء : تفسير هذه الآية بذلك في روايات المحدثين ، ومن ذلك ما :

٢ - أخرجه الإمام أحمد والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قول الله عز وجل ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك** ﴾ قال تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ ، وقال بعضهم بل اقتلوه ، وقال بعضهم بل أخرجوه ، فأطلَع الله عز وجل نبيه على ذلك ، فبات عليٌّ رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٣ - ١٠٥ ، تاريخ الطبري ٢/ ٣٧٠ - ٣٧٢ .

وقد جاء في رواية ابن هشام عن زياد البكائي قال ابن إسحاق : فحدثني من لا أتهم من أصحابنا عن عبد الله بن أبي نجيح ، وجاء في رواية الطبري عن سلمة بن الفضل الأبرش قال : حدثني محمد بن إسحاق قال : حدثني عبد الله بن أبي نجيح ، وهذا يعني أن ابن إسحاق رواه مرة عن ابن أبي نجيح بواسطة . فحدث بذلك زيادًا البكائي ، ورواه عنه مرة أخرى بدون واسطة فحدث به سلمة بن الفضل فهو بهذا محمول على الاتصال .

(٢) سورة الانفال ، آية ٣٠ .

وخرج رسول الله ﷺ ، حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبي ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا نسج العنكبوت على بابه ، فبات فيه ثلاث ليال .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد والطبراني وفيه عثمان بن عمرو الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح [1] .

وذكره الحافظ ابن كثير وقال : وهذا إسناد حسن وهو من أجود ماروُي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار ، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ [2] .

وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر [3] .

وكذلك حسَّنه الزرقاني [4] .

وهكذا عقد زعماء قريش ذلك المجلس الخطير في دار الندوة وخرجوا منه بنشوة الماكرين وفرحة الآثمين ، وهم يظنون لجهلهم ونظرهم القاصر أنهم قد أصابوا من الإسلام موجعا ، وأضافوا إلى

(١) مجمع الزوائد ٧/ ٢٧ .

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٧٩ .

(٣) فتح الباري ٧/ ٢٣٦ .

(٤) شرح المواهب ١/ ٣٢٣ .

ماورثوه من مهازل الجاهلية رفعة وعلوا .

إن ما عمله زعماء مكة من التخطيط الأثيم لقتل النبي ﷺ وهو أعزل من جنوده ، خوفاً من أن يهاجر فيقيم دولة ويثيرها حربا عليهم . . إن ذلك دليل على اتصافهم بالجبن والبعد عن الحياة الحربية التي يعتز بها العرب المعاصرون لهم .

لقد كان مما يعتز به العرب إنشاء الحروب فيما بينهم ، وأشعارهم طافحة بالحماسة والاعتزاز بالشجاعة والافتخار بخوض المعارك ، فما بال جبابرة مكة آنذاك يصولون ويجولون على العزّل من السلاح ، الداعين إلى السعادة والصلاح ! .

وما بالهم لما لاحت لهم بوارق الحرب التي سيثيرها عليهم رسول الله ﷺ حاولوا كتم أنفاسه قبل أن يثيرها ! .

إنهم لايفعلون ذلك بدافع من محاولة الإصلاح ، بل يفعلونه لكبْت دعوة الإصلاح العظمى ، وكتْم صوت المصلح الأكبر والداعية الأعظم ﷺ .

وقوله في رواية ابن عباس : « فأطْلَع الله عز وجل نبيه على ذلك »[1] يعني على مؤامرة قريش ضده ، وجاء في رواية ابن إسحاق : « فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال : لاتَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه »[2] .

---

(١) انظر رقم (٢) .

(٢) تابع لرقم (١) .

وهكذا كان الله تعالى مع نبيه ﷺ بنصره وحمايته .

ومن هنا نعلم أن المعركة بين الحق والباطل ليست معركة أرضية فقط لأن الحق موصول بالسماء ، وجنود الحق مؤيدون من الله تعالى .

ولئن كان رسول الله ﷺ مؤيداً من الله تعالى بجبريل عليه السلام الذي يخبره بما يدبر له أعداؤه ويوجهه إلى خطة العمل المضاد لذلك ، فإن جنود الحق من أتباع رسول الله ﷺ مؤيدون من الله تعالى بأنواع من النصر قد تظهر تكريماً من الله تعالى لأوليائه وقد لاتظهر ، وقد أيد الله نبيه ﷺ وأصحابه بالكثير من ذلك كما سيتبين لنا في مواقف أخرى بإذن الله تعالى ، وذلك تفسير واقعي لقول الله تعالى ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبّتْ أقدامكم** ﴾ ، فنصر الله تعالى يكتب لكل من ناصر هذا الدين .

وبهذا التدبير الإلهي أحبط الله مؤامرتهم وأبطل مكرهم كما بين ذلك بقوله ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثْبِتُوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ .

٣ - أخرج الإمام البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت : فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعاً - في ساعة لم يكن يأتينا فيها - فقال أبو بكر : فداءٌ له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذنَ ، فأذنَ له ، فدخل . فقال

النبي ﷺ لأبي بكر : أخْرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنتَ يارسول الله ، قال : فإني قد أُذنَ لي في الخروج . فقال أبو بكر : الصِّحابة بأبي أنت يارسول الله . قال رسول الله ﷺ : نعم . قال أبو بكر : فخُذ بأبي أنت يارسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين . قال رسول الله ﷺ : بالثمن .

قالت عائشة : فجَّهزناهما أحث الجهاز ، وصنعنا لهما سُفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سُميِّت ذات النطاق .

قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور ، فكمنا فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقفٌ لَقنٌ ، فَيدَّلج من عندهما بسحر [1] ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وَعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل - وهو لَبَنُ منحتهما ورضيفهما [2] - حتي ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث .

---

(١) يقال : أدلج بالتخفيف إذا سار من أول الليل ، وادَّلج بالتشديد إذا سار من آخره ، والاسم منهما الدُّلجة .

(٢) الرسل بكسر الراء اللبن الخفيف ، والرضيف بفتح الراء وكسر الضاد اللبن الغليظ وكانوا يضعون فيه الحجارة المحماة لينعقد ، والمنحة الشاة (فتح الباري ٧/ ٢٣٧) .

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجُلاً من بني الدِّيل ، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خرِّيتا - والخرِّيت الماهر بالهداية - قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي ، وهو على دين كفار قريش ، فأمَّناه ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل ، فأخذ بهم طريق الساحل (١) .

وأخرجه الطبراني من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، ومما جاء فيه من الزيادات فخرجا فمكثا في الغار في جبل ثور فلما انتهيا إليه دخل أبو بكر الغار قبله فلم يترك فيه جُحْراً إلا أدخل فيه إصبعه مخافة أن يكون فيه هامَّة .

وخرجت قريش حين فقدوهما في بغائهما وجعلوا في النبي ﷺ مائة ناقة ، وخرجوا يطوفون في جبال مكة حتى انتهوا إلى الجبل الذي هما فيه فقال أبو بكر لرجل مواجه الغار : يارسول الله إنه ليرانا ، فقال : كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها ، فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار ، فقال رسول الله ﷺ : لو كان يرانا مافعل هذا .

ذكره الإمام الهيثمي وقال : وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح (٢) .

---

(١) صحيح البخاري / مناقب الأنصار رقم ٣٩٠٥ (٧/ ٢٣١) .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٥٣ - ٥٤ .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث عائشة رضي الله عنها وفيه أن اليوم الذي جاء فيه أبو بكر هو اليوم الذي أذن له بالخروج فيه من مكة .

وعلى هذا فإن النبي ﷺ جاء لإخباره بذلك وللاتفاق معه على كيفية الخروج ليلاً .

وجاء فيه أن أبا بكر بكى من الفرح بصحبة النبي ﷺ ، تقول عائشة : فو الله ماشعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ [1] .

لقد جاء النبي ﷺ إلى بيت أبي بكر مستخفيا قد قَنَّع وجهه حتى لايراه المشركون ، واختار وقت الظهيرة لأن الناس لايخرجون من بيوتهم من شدة الحر ، فهو قد دخل في معركة غير متكافئة إطلاقا حيث يمثلها النبي ﷺ وحده من جانب ويمثلها الكفار بعددهم وعُددهم من الجانب الآخر ، فهو مضطر إلى الاستخفاء وتدبير الخطط التي تضمن خروجه من بين ظهرانيهم بسلام ، وهذا هو النجاح في تلك المعركة الذي يخشاه المشركون .

وأبو بكر رضي الله عنه يبكي من الفرح بصحبة النبي ﷺ في تلك الرحلة الجهادية المحفوفة بالمخاطر من أول قدم فيها إلى نهايته .

أو ليس رسول الله ﷺ وصاحبه يتحديان بذلك الخروج إرادة جميع زعماء مكة وجنودهم المسخرين لهم ؟! فما الذي يحمل أبابكر على الفرح بالصحبة في تلك الرحلة الشاقة الخطرة ؟!

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٨ .

إنه الإيمان القوي بالإسلام ، ومادام وجود هذا الدين وقيامه مترتبا على سلامة النبي ﷺ وتمكنه من الدعوة فلمَ لايستسهل أبو بكر كل صعب من أجل حماية النبي ﷺ ؟ ولم لايبكي فرحا بصحبته والفوز بخدمته والدفاع عنه ؟!

وقوله في رواية ابن عباس : « فبات عليّ على فراش رسول الله ﷺ » (١) كان ذلك بأمر من رسول الله ﷺ كما جاء في رواية ابن إسحاق : « فلما رأى رسول اله ﷺ مكانهم قال لعلي : نَمْ على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه فإنه لايخلص إليك شيء تكرهه منهم » (٢) .

وهذا جزء من تدبير الله تعالى لرسوله ﷺ ، حيث علم أن قيام علي بن أبي طالب بذلك الدور لن يؤدي إلى قتله .

ومع الثقة والطمأنينة التي حصلت لعلي رضي الله عنه بوعد النبي ﷺ فإن بياته في ذلك المكان الخطر الذي كان هدفاً لعدد كبير من المشركين قد تجمعوا وراء الباب يعتبر شجاعة فذة وجسارة عظيمة ، ولعل هذه أول تجربة كبيرة لقوة قلبه ورباطة جأشه ، وقد سجل له التاريخ بعد ذلك مواقف عالية في الشجاعة والإقدام .

وقول رسول الله ﷺ حينما عرض عليه أبوبكر إحدى الناقتين :

---

(١) الحديث رقم (٢) .

(٢) تابع للحديث رقم (١) .

«بالثمن »[1] بيان لاهتمام النبي ﷺ بالعمل الصالح فهو يريد أن تكون هجرته من ماله ليكسب العمل الصالح في الجهد البدني والمالي ، وإلا فإنه يعلم أن أبابكر لايهمه المال بقليل ولابكثير وأنه قد أعد تلك الراحلة عن طيب نفس .

وهذا مثل من أمثلة كون النبي ﷺ القدوة العظمى لهذه الأمة ، فينبغي للمسلم أن ينافس إخوانه على العمل الصالح ، وأن لاتستريح نفسه لكون غيره يبذل عنه المال فيما إذا كان بذل المال عملاً صالحاً .

وفي هذه الأخبار فضائل أخرى لأبي بكر رضي الله عنه ، منها أنه كلف ابنه عبد الله بأن يسمع ما يقوله المشركون وما يخططونه نهاراً ثم يأتيهما ليلاً فيزودهما بالأخبار .

ومنها أنه كلف مولاه عامرين فهيرة بأن يأتي بغنم أبي بكر ليلاً فيتزود هو ورسول الله ﷺ من حليبها ولحمها .

وتلك من فضائل أبي بكر رضي الله عنه الذي جنَّد في تلك الرحلة نفسه وأهله وماله في سبيل الله تعالى .

٤ - قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام ، فقال وهم على بابه : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم . ثم بُعثتم من بعد موتكم فجُعلتْ لكم جنان كجنان الأُرْدُنّ ،

---

(١) حديث رقم ٣ .

وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم . ثم جُعلت لكم نار تحرقون فيها .

قال : وخرج عليهم رسول الله . فأخذ حفنة من تراب في يده . ثم قال : نعم أنا أقول ذلك . أنت أحدهم . وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه . فلا يرونه . فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس : ﴿ **يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فأغشيناهم فهم لايبصرون** ﴾[1] حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات . ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً . ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب [2] .

وهكذا حينما أظلم الليل نادى أهل الباطل بعضهم بعضاً واجتمعوا لتنفيذ الخطة المرسومة التي اتفقوا على تنفيذها في تلك الليلة ، والغرور يحدوهم ، والحبور بالأثم يغمرهم حتى قال أبو جهل هذا الكلام الساخر .

إن خروج النبي ﷺ وحده من بين جمع من أعدائه المسلحين الذين ينتظرون خروجه ليقتلوه يعتبر مثلاً عالياً للشجاعة الفذة .

وإن أبلغ صورة لهذه الشجاعة قوله لأبي جهل : نعم ، أنا أقول ذلك .

---

(١) سورة يس الآيات (١ ، ٩) .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/١٠٧ .

لقد كان رسول الله ﷺ ثابت الجنان راسخ اليقين ، على ثقة كاملة بوعد ربه جلّ وعلا له بالنصر والتمكين .

ولقد اغتر أبو جهل بذلك الجمع من الشباب المسلحين الذي استطاع أن يجندهم لقتل رسول الله ﷺ فقال ذلك الكلام الساخر ، ولكن ما أن خرج عليهم رسول الله ﷺ حتى أعمى الله تعالى أبصارهم وطمس بصائرهم ، فذرّ التراب على رؤوسهم ومر من بين أيديهم وهم لايبصرون .

وهذه معجزة ظاهرة من دلائل نبوته ﷺ ، ومثل واضح لمعية الله تعالى لأوليائه بالنصر والحماية .

قال ابن إسحاق في سياق رواية محمد بن كعب القرظي : فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ماتنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمداً ، قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون مابكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش مُتسجِّياً ببرد رسول الله ﷺ ، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علي رضي الله عنه عن الفراش ، فقالوا : والله لقد كان صدَقَنا الذي حدثنا (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٧

ولكن حتى بعد أن أيقنوا بتلك المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ فإنهم استمروا في المعركة معه وجدُّوا في البحث عنه ليقتلوه ، ولو عقلوا لعرفوا أنه في حماية الله تعالى ورعايته وأنهم لن يصلوا إليه مهما بذلوا من جهد ومحاولات .

لقد كان إفلات النبي ﷺ من بين أيديهم بداية واضحة لخذلانهم وفشل خطتهم ، ودليل ظاهر لكل ذي عقل سليم بأنه لم يكن في الميدان وحده وأنه مؤيد بقوة عظمى لايستطيعون إدراكها ولامجابهتها .

٥ - وأخرج أبو عبد الله الحاكم رحمه الله تعالى من حديث عمرو بن ميمون عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : شَرَى عَليّ نفسه ولبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه ، وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ ، وقد كان رسول الله ﷺ ألبسه برده ، وكانت قريش تريد أن تقتل النبي ﷺ فجعلوا يرمون علياً ويرونه النبي ﷺ وقد لبس برده ، وجعل علي رضي الله عنه يتضوَّر ، فإذا هو علي فقالوا : إنك للئيم إنك لتتضور وكان صاحبك لايتضور ولقد استنكرناه منك .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد رواه أبو داود الطيالسي وغيره عن أبي عوانة بزيادة ألفاظ وأقره الإمام الذهبي [١] .

---

(١) المستدرك ٣/ ٤ .

وأخرجه الإمام أحمد بنحوه وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى [1] .

وهذا الحديث الصحيح يفيد بأن النبي ﷺ نام على فراشه أول الليل ، وأن المشركين لما طوقوا بيته رأوا النائم على الفراش فتوقعوه هو فصاروا يرمونه بالحجارة ليقوم ويخرج إليهم ، ولكنه تحمل وقع الحجارة ولم يتحرك ، وهذا دليل على قوة احتماله وطول صبره ، ثم إنه قام وأمر علياً رضي الله عنه أن ينام في فراشه ذلك ، ثم خرج عليهم وحصل ماحصل من طمس أبصارهم وذَرِّ التراب على رؤوسهم والنجاة منهم .

ولكنهم لم يدركوا حقيقة ماحدث فاستمروا يرمون ذلك النائم على الفراش ، وأنه كان يتحرك ويضطرب وهم لايدرون أنه علي رضي الله عنه .

ولقد كان من حكمة أمر النبي ﷺ علياً بأن ينام على فراشه إيهام المشركين بأنه ﷺ مايزال داخل البيت ، وذلك يتيح له فرصة الذهاب إلى أبي بكر ثم اللجوء إلى الغار قبل أن يبدأ الكفار في البحث عنه .

٦ - أخرج أبو عبد الله الحاكم بإسناده عن محمد بن سيرين قال : ذُكر رجال على عهد عمر رضي الله عنه فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر رضي الله عنهما قال : فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فقال : والله لَلَيْلَة

---

(١) مسند أحمد بتحقيق شاكر ٥/ ٢٦ - ٢٧ .

من أبي بكر خير من آل عمر ، ولَيوم من أبي بكر خير من آل عمر ، لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال : يا أبا بكر مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي ؟ فقال : يارسول الله أذكر الطَّلَب فأمشي خلفك ثم أذكر الرَّصَد فأمشي بين يديك ، فقال : يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني ؟ قال : نعم والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من مُلمَّة إلا أحببت أن تكون بي دونك ، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : مكانك يارسول الله حتى أستَبْرِئَ لك الغار فدخل واستبرأه حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الجحَرة[1] فقال : مكانك يارسول الله حتى استبرئ الجحَرة فدخل واستبرأ ثم قال : انزل يارسول الله فنزل .

فقال عمر : والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا إرسال فيه ولم يخرجاه ، وقال الذهبي صحيح مرسل [2] .

وأخرجه الحافظ البيهقي عن شيخه الحاكم بنفس هذا الإسناد [3] .

---

(١) بكسر الجيم وفتح الحاء جمع جُحْر ، والمراد أن يتأكد من خلوها من الهوامّ .

(٢) المستدرك ٣/ ٦ ، وفيه أخطاء تم تصحيحها من دلائل النبوة للبيهقي .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٧٦ .

وأشار إليه الحافظ ابن حجر من رواية البيهقي والبغوي [1] .

وقد ذكر في هذا الأثر ليلة أبي بكر الفاضلة ويومه الفاضل مجملاً ثم جاء البيان لليلة الفاضلة ولم يأت بيان اليوم الفاضل وهو يوم الردة حيث وقف أبو بكر للمرتدين والمتمردين بقوة وحزم .

وقد ذكر الحافظ البيهقي رواية أخرى فيها بيان هذا اليوم وقد جاء فيها : وأما يومه فلما توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب ، فقال بعضهم : نصلي ، ولانزكي وقال بعضهم : لانصلي ولانزكي ، فأتيته ولا آلُوهُ نصحاً ، فقلت : ياخليفة رسول الله تألَّف الناس وارفق بهم ، فقال : جبار في الجاهلية خوار في الإسلام ! فبماذا أتألفهم أبشعر مفتعل أو بشعر مفترى ؟ قُبض النبي ﷺ وارتفع الوحي ، فو الله لومنعوني عقالا مما كانوا يعطون رسول الله لقاتلتهم عليه ، قال : فقاتلنا معه فكان والله رشيد الأمر فهذا يومه [2] .

ولكن قال الإمام الذهبي عن هذا الخبر : وهو منكر سكت عنه البيهقي ، ثم قال : وآفته من هذا الراسبي يعني عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي قال : فإنه ليس بثقة مع كونه مجهولا [3] .

وكون هذا الخبر فيه ضعف شديد في إسناده لايخفى على الحافظ

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٣٧ .

(٢) دلائل البيهقي ٢/ ٤٧٦ - ٤٧٧ .

(٣) تاريخ الإسلام / السيرة / ٢٢١ - ٢٢٢ .

البيهقي ولكنه ذكره لما فيه من بيان ما أجمل في الرواية السابقة ، ولكن كان ينبغي له أن يبين ضعف إسناده .

وهذا الخبر فيه مثال عال من التضحية والفداء ، فقد جعل أبو بكر من نفسه درعا لوقاية النبي ﷺ ، فصار يمشي أحياناً أمامه ليتلقى هجوم الأعداء المترصدين له ، وأحياناً خلفه ليتلقى هجوم الأعداء الذين يطلبونه ، وقد ذكر وهو الصادق الصِّدِّيق بأنه يفدي رسول الله ﷺ بنفسه في أي مُلمَّة .

والمثال الآخر في دخوله الغار قبل النبي ﷺ واستبرائه الجحور للتأكد من سلامتها من الهوام ، وقد سبق في حديث أسماء رضي الله عنها أن أبا بكر لم يترك في الغار جحراً إلا أدخل فيه إصبعه مخافة أن يكون فيه هامَّة .

فهذا مثال واضح لتضحيته بنفسه في سبيل رسول الله ﷺ ، وذلك لاحتمال أن يكون في بعض تلك الجحور حية أو عقرب فتلسعه ، لكنه رضي الله عنه لم يُلق لهذا الاحتمال بالاً فداء للنبي ﷺ .

٧ - أخرج الإمام البخاري ومسلم - واللفظ له - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق حدثه قال : نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت : يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال : « يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ! » (١) .

---

(١) صحيح البخاري ، التفسير رقم ٤٦٦٣ ، مناقب الأنصار رقم ٣٩٢٢ (الفتح ٨/ ٣٢٥ ، ٧/ ٢٥٧) ، صحيح مسلم ، فضائل الصحابة رقم ٢٣٨١ ص ١٨٥٤ .

وذكر الحافظ ابن كثير نحوه من طريق الحافظ أبي بكر بن علي القاضي عن الحسن البصري قال : انطلق النبي ﷺ وأبوبكر إلى الغار . وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا : لم يدخل أحد ، وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأبو بكر يرتقب ، فقال أبو بكر للنبي ﷺ : هؤلاء قومك يطلبونك . أما والله ماعلى نفسي أئلُّ[1] ولكنه مخافة أن أرى فيك ما أكره . فقال له النبي ﷺ : « يا أبا بكر لاتخف إن الله معنا » وهذا مرسل عن الحسن ، وهو حسن بحاله من الشاهد ، وفيه زيادة صلاة النبي ﷺ في الغار . وقد كان عليه السلام إذا أحزنه أمر صلّى [2] .

وهكذا وصل المشركون إلى مشارف الغار فأعمى الله تعالى أبصارهم عن رؤية من بداخله ، وطمس بصائرهم عن التفكير في ماضي النبي ﷺ ، وما أجرى الله تعالى على يديه من المعجزات التي كانوا يعتبرونها من السحر ، فكان بإمكانهم أن يقدِّروا أن نسيج العنكبوت نوع من ذلك .

وقول أبي بكر « أما والله ما على نفسي أئلُّ ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره » يدل على تجرده الكامل من حظِّ النفس وبيعه نفسه خالصة لله تعالى ولرسوله ﷺ ، فالقضية الوحيدة التي ملأت جوانحه وشغلت

---

(١) أي أحن وأبكي .

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٧٩ .

باله هي نجاة رسول الله ﷺ ليستمر باستمرار بقائه نزول النور الإلهي وإكمال هذا الدين .

وفي جواب النبي ﷺ دلالة ظاهرة على نبوته إذ أن أقوى الناس إيماناً لايصل إلى هذه الدرجة من اليقين التي كان يتصف بها رسول الله ﷺ فإن أبابكر كان أقوى هذه الأمة إيماناً كما ثبت عن رسول الله ﷺ ولم يصل إلى هذه الدرجة من اليقين .

٨ - قال ابن إسحاق : فحُدِّثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل ابن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يابنت أبي بكر ؟ قالت : قلت : لا أدري والله أين أبي ! قالت : فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثًا - فلطم خدِّي لطمة طرح منها قُرطي (١) .

وهذا مثل من أمثلة طغيان الكفار وجبروتهم ، ولقد كان من عادة العرب تكريم النساء ، والترفع عن الاعتداء عليهن لانهم يعتبرون أن ذلك مما يخل بالمروءة ويسقط الكرامة ، ولكن أبا جهل لخبثه وشدة حقده على رسول الله ﷺ وعلى الإسلام تناسى العرف السائد بين العرب وأفرغ حقده في لطم تلك الفتاة البريئة بعد أن عز عليه لطم الرجال والظفر بهم .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١١١ - ١١٢ .

٩ - قال ابن إسحاق : فحدثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير أن أباه عبّادا حدثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت : لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه . قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة ، وقد ذهب بصره، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قالت قلت : كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً .

قالت : فأخذت أحجاراً فوضعتها في كُوَّة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ، ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم ، ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكني أردت أن أُسكّن الشيخ بذلك (١) .

وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد (٢) .

وقال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع (٣) .

وأخرجه الحاكم من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق بهذا الإسناد وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٣ .

(٢) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٨٢ .

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٥٩ .

الإمام الذهبي [1] مع أنه قد سقط من هذا الإسناد أحد الرواة وهو عباد بن عبد الله بن الزبير وقد جاء الإسناد كاملا في رواية ابن هشام وأحمد والطبراني ، ولايخفى ذلك على الحافظين الحاكم والذهبي ولكن لعل ذلك سقط من أحد النساخ .

وهكذا يبذل أبو بكر رضي الله عنه ماله في سبيل الله تعالى كما بذل نفسه ، فقد حمل معه ماله كله لينفق منه في تلك الرحلة الميمونة التي كان يُعدُّ لها نفسه وأسرته وماله .

إن الإيمان الذي يصل إلى حد بذل النفس والمال وكل الإمكانات من أجل نصر القضية التي يؤمن بها صاحبها لابد أن يصل إلى نتائج إيجابية فعالة ، فكيف إذا كانت هذه الجهود تبذل لنصر دين الله تعالى والحال أن من نصر هذا الدين كان الله تعالى معه بنصره وحمايته ؟ .

١٠ - أخرج الإمام مسلم من حديث البراء بن عازب قال : جاء أبو بكر الصديق إلى أبي في منزله . فاشترى منه رحلاً . فقال لعازب : ابعث معي ابنك يحمله معي إلى منزلي . فقال لي أبي : احمله فحملته .

وخرج أبي معه ينتقد ثمنه ، فقال له أبي : يا أبا بكر حدثني كيف صنعتما ليلة سريت مع رسول الله ﷺ ، قال : نعم ، أسرينا ليلتنا كلها ، حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق لا يمر فيه أحد ، حتى رُفعت لنا

---

(١) المستدرك ٣/ ٥ .

صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس بعد فنزلنا عندها ، فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكانا ينام فيه النبي ﷺ في ظلها ، ثم بسطت عليه فروة ، ثم قلت : نم يارسول الله وأنا أنفض لك ماحولك [١] . فنام .

وخرجت أنفض ماحوله ، فإذا أنا براعي غنم مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا ، فلقيته فقلت : لمن أنت يا غلام ؟ فقال لرجل من أهل المدينة ، قلت : أفي غنمك لبن ؟ قال : نعم ، قلت : أفتحلب لي ؟ قال : نعم ، فأخذ الشاة فقلت له : انفض الضرع من الشعر والتراب والقذى (قال فرأيت البراء يضرب بيده على الأخرى ينفض) فحلب لي في قعب [٢] معه كُثْبَةً من لبن ، قال : ومعي إداوة أرتوي فيها للنبي ﷺ ليشرب منها ويتوضأ .

قال : فأتيت النبي ﷺ وكرهت أن أوقظه من نومه ، فوافقته استيقظ ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله ، فقلت : يارسول الله اشرب من هذا اللبن ، قال : فشرب حتى رضيت ، ثم قال : « ألم يَأن للرحيل ؟ » قلت : بلى ، قال : فارتحلنا بعد مازالت الشمس [٣] .

هذه الرواية فيها تلخيص لبعض أحداث رحلة الهجرة النبوية وهي

---

(١) أي أنظر حتى لايكون هناك عدو .

(٢) القعب قدح من خشب مقعر .

(٣) صحيح مسلم ، الزهد رقم ٧٥/ ٢٠٠٩ .

تبين شيئاً مما قام به أبو بكر رضي الله عنه في خدمة النبي ﷺ خلال هذه الرحلة .

ولـئن بـين أبو بكر شـيئاً من ذلك فإن ماسكت عنه أعظم ، فكم هي الأعمال الصالحة التي اكتسبها أبو بكر خلال تلك الرحلة المباركة ورفعت له !

وقد تركت ذكر مايتعلق بخبر سراقة بن مالك من هذا الحديث لأنه سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

* * *

نزول رسول الله ﷺ على أم معبد
ومافي ذلك من الدلائل النبوية والمواقف

١١ - ذكر هذا الخبر العلامة القسطلاني في « المواهب » ونسبه شارحه العلامة الزرقاني إلى الحاكم وذكر تصحيحه إياه ، والبيهقي وصاحب الغيلانيات ، ومن طريقه اليعمري عن أبي سليط الأنصاري البدري ، كما نسبه إلى ابن عبد البر وابن شاهين وابن السَّكن والطبراني وغيرهم عن أخي أم معبد حُبَيْش بن خالد الخزاعي صاحب رسول الله ﷺ قال : لما خرج ﷺ في الهجرة ومعه أبو بكر وابن فُهَيرة وابن أُرَيقط يدلهم على الطريق مروا بقُدَيد على أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية ، وكانت بَرْزَة جَلْدة [١] تحتبي بفناء القبة ، ثم تسقي وتطعم من يمر بها ، وكان القوم مُرْملين مُسْنتين [٢] ، فطلبوا لبنا ، أو لحما ، أو تمرا ، يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئاً ، وقالت والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى [٣] .

فنظر ﷺ إلى شاة في كسْر الخيمة خلَّفها الجهد عن الغنم ، فسألها ﷺ : « هل بها من لبن » ؟ قالت : هي أجهد من ذلك ، فقال ﷺ : « أتأذنين أن أحلبها ؟ » فقالت نعم بأبي أنت وأمي ، إن رأيت

---

(١) أي كبيرة تبرز للرجال ولاتحتجب ، وجلدة أي قوية .

(٢) مرملين أي قد فنيت ازوادهم ومسنتين أي أصابهم القحط .

(٣) أي ما أحوجناكم إلى طلب الكرم منا الذي يُلمح إليه طلب الشراء .

بها حلباً فاحلبها ، فدعا ﷺ بالشاة فاعتقلها ، ومسح ضرعها وسمَّى الله تعالى ، فتفاجَّت [1] ودرت ، ودعا بإناء يُربض الرهط [2] فحلب فيه ثجاً [3] ، وسقى القوم حتى رووا ، ثم شرب ﷺ آخرهم ، ثم حلب فيه مرة أخرى عللا بعد نهل [4] ثم غادره عندها .

وذهبوا ، فمالبث أن جاء أبو معبد زوجها يسوق أعنزا عجافا ، يتساوكن [5] هزلا فلما رأى اللبن أبو معبد عجب وقال : ماهذا يا أم معبد ؟ أنَّى لك هذا والشاة عازب حيال [6] ، ولاحلوب في البيت فقالت أم معبد : لا والله ، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من شأنه كذا وكذا ، فقال أبو معبد : صفيه يا أم معبد فقالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة مُبلج [7] الوجه ، حسن الخَلْق ، لم تعبه ثُجْلة [8] ، ولم تُزْربه صَعْلة [9] ،

---

(١) يعني فرجت رجليها .

(٢) أي يشبع الجماعة حتي يستريحوا من الشبع .

(٣) أي حلبا قويا .

(٤) يعني فشربوا ثانيا بعد الأول .

(٥) أي يتمايلن من الضعف .

(٦) أي ليست بذات لبن .

(٧) أي مشرق الوجه .

(٨) الثجلة عظم البطن .

(٩) يعني صغر الرأس أو نُحُول البدن .

وسيم قسيم [١] ، في عينيه دعج [٢] ، وفي أشفاره وطف [٣] ، وفي صوته صحَل [٤] ، أحور ، أكحل أزج ، أقرن [٥] شديد سواد الشعر ، في عنقه سطع [٦] ، وفي لحيته كثاثة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات نُظمْنَ يتحدرن ، حلو المنطق ، فصل لانزر ولاهذر [٧] أجهر الناس وأجمله من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب ، ربعة لاتشنؤه من طول ، ولاتقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا لأمره ، محفود محشود [٨] لاعابس ولامفنّد[٩] .

---

(١) أي حسن الوجه .

(٢) أي شدة في سوادها .

(٣) الوطف كثرة شعر العينين .

(٤) أي لم يكن حاد الصوت .

(٥) الحور شدة سواد العين مع شدة بياضها ، والكحل شدة سواد أجفان العين ، والزجج دقة الحاجبين في طول . والأقرن المقترن الحواجب .

(٦) أي طول .

(٧) أي وسط لاقليل ولاكثير .

(٨) محفود أي مخدوم ، ومحشود يعني عنده حَشْد وهم الجماعة .

(٩) المفنّد هو الذي يكثر اللوم .

فقال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش ، لو رأيته لاتَّبعته [1] .

وجاء في رواية أبي عبد الله الحاكم : ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا ، وأصبح صوت بمكة يسمعون الصوت ولايدرون من صاحبه وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتَي أم معبد
هما نزلاها بالهدى واهتدت به ... فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيا لَقُصَيٍّ مازوى الله عنكم ... به من فعال لاتُجارَى وسؤدد
ليَهْن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد
ويَهْن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فانكمُ إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلّبت ... عليه صريحاً ضرة الشاة مزبد
فغادره رهناً لديها لحالب ... يرددها في مصدر بعد مورد

فلما سمع حسان الهاتف بذلك شبب يجاوب الهاتف فقال :

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم ... وقُدِّس من يسري إليهم ويغتدي
ترحَّل عن قوم فضلَّت عقولهم ... وحلَّ على قوم بنور مجدَّد
هداهم به بعد الضلالة ربهم ... فأرشدهم من يتبع الحق يرشد

---

(1) شرح المواهب اللدنية ١/ ٣٤٠ - ٣٤٣ .

وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير حزام بن هشام بن حبيش وأبيه وكلاهما ثقة - مجمع الزوائد ٨/ ٣١٣- .

وهل يستوي ضُلاَّل قوم تسفهوا عَمًى وهداة يهتدون بمهتد
وقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى مالا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشهد
وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد[1]

وقال الحافظ ابن كثير عن أم معبد : وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا ، وقد ذكر عددا من هذه الطرق [2] .

وفي هذه الرواية موقف يذكر لحسان بن ثابت رضي الله عنه حيث مدح النبي ﷺ وأشاد بالإسلام وضلل أعداءه .

١٢ - أخرج الإمام البيهقي بإسنادين عن عبد الرحمن بن أبي ليلى من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة فانتهينا إلى حي من أحياء العرب ، فنظر رسول الله ﷺ إلى بيت مُنْتحياً فقصد إليه ، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة ، فقالت : ياعبد الله ! إنما أنا امرأة ، وليس معي أحد ، فعليكما بعظيم الحي إذا أردتم القرى ، قال : فلم يجبها وذلك عند المساء .

فجاء ابن لها بأعنز له يسوقها ، فقالت له : يابني انطلق بهذه العنز والشفرة إلى هذين الرجلين فقل لهما تقول لكما أمي : اذبحا هذه وكلا

---

(١) المستدرك ٣/ ٩-١١ .

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٨٨ - ١٩٢ .

وأطعمانا ، فلما جاء ، قال له النبي ﷺ : انطلق بالشفرة وجئني بالقدح ، قال : إنها قد عزبت وليس لها لبن ، قال : انطلق ، فانطلق فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها ، ثم حلب حتى ملأ القدح ، ثم قال : انطلق به إلى أمك ، فشربت حتى رويت ، ثم جاء به فقال : انطلق بهذه وجئني بأخرى ، ففعل بها كذلك ، ثم سقى أبا بكر ، ثم جاء بأخرى ففعل بها ذلك ، ثم شرب النبي ﷺ .

قال : فبتنا ليلتنا ، ثم انطلقنا فكانت تسميه المبارك وكَثُرَتْ غنمها ، حتى جلبت جلباً إلى المدينة ، فمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فرآه ابنها فعرفه ، فقال يا أمَّهْ إن هذا الرجل الذي كان مع المبارك ، فقامت إليه ، فقالت : ياعبد الله من الرجل الذي كان معك ؟ قال : وماتدرين من هو ؟ قالت : لا ، قال : هو النبي ﷺ ، قالت : فأدخلني عليه ، قال : فأدخلها عليه ، فأطعمها وأعطاها . زاد ابن عبدان في روايته : قالت : فَدُلَّني عليه فانطلقتْ معي وأهدت له شيئاً من أقط ومتاع الأعراب قال : فكساها وأعطاها قال : ولا أعلمه إلا قال أسلمت .

قال البيهقي : وهذه القصة وإن كانت تنقص عما روينا في قصة أم معبد ويزيد في بعضها فهي قريبة منها ويشبه أن يكونا واحدة [١] ، ورجح الزرقاني تعدد القصة لاختلاف بعض تفاصيل الخبرين ونقل عن الحافظ ابن حجر القول باحتمال التعدد [٢] وهو الظاهر .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٢) شرح المواهب ١/ ٣٤٩ .

وذكر الحافظ ابن كثير هذه الرواية وحسن إسنادها [1] .

في هذا الخبر أن النبي ﷺ قصد ذلك البيت المنفرد البعيد عن الحي ، ولما أخبرته المرأة بعظيم الحي وأشارت عليه بأن يذهب إليه لم يفعل ذلك ، وهذا التصرف هو الموافق للحكمة فإن زعماء قريش قد أرسلوا إلى زعماء القبائل وأغروهم بذلك الجُعْل ا لكبير من الإبل في مقابل أن يأتوا برسول الله ﷺ ، فكان الأمر يقتضي أخذ الحيطة والحذر ، والابتعاد عن مضارب كبار القوم .

وفي هذا الخبر حدثت معجزة عظيمة لرسول الله ﷺ حيث مسح على ضروع تلك الشياه الخالية من اللبن فدرَّت حالاً وشربوا جميعاً من حليبها ، وقد تكررت هذه المعجزة لرسول الله ﷺ في هذه الرحلة وفي غيرها .

كما أن هذا الخبر يشتمل على معجزة أخرى للنبي ﷺ وهي ما حصل لغنم تلك المرأة من البركة والنماء ، حتى سَمَّت النبي ﷺ بسبب ذلك الرجلَ المبارك .

وفي هذا الخبر من المواقف ما حصل من رسول الله ﷺ من إكرام تلك المرأة حينما وفدت إلى المدينة والاهتمام بها .

* * *

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٨٩ - ١٩٠ .

خبر سراقة بن مالك المُدلجي

١٣ - أخرج الإمام البخاري من حديث سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي أنه قال : « جاءنا رُسُل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره . فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : ياسُراقة ، إني قد رأيت آنفاً أسْودة بالساحل أُراها محمداً وأصحابه .

قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانا وفلاناً انطلقوا بأعيننا ثم لبثتُ في المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي - وهي من وراء أكمة - فتحبسها علي .

وأخذتُ رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزُجِّه الأرض [1] ، وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسي فركبتها ، فرفعتها تقرِّب بي ، حتى دنوت منهم ، فعثرَتْ بي فرسي ، فخررت عنها ، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام ، فاستقسمت بها : أضُرُّهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي - وعصيت الأزلام - تقرِّب بي ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لايلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسي في الأرض

(١) أي وضع حديدة الرمح على الأرض حتى لايراه قومه .

حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ، ثم زجرتها ، فنهضت فلم تكد تُخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان [1]، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره .

فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبت فرسي حتى جئتهم . ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أنْ سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية . وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزآني [2] ، ولم يسألاني إلا أن قال : أخْفِ عنا . فسألته أن يكتب لي كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أَدَم [3] ، ثم مضى رسول الله ﷺ [4] .

١٤ - وأخرجه الإمام مسلم من حديث أبي بكر رضي الله عنه وجاء فيه : فلما دنا دعا عليه رسول الله ﷺ . فساخ فرسه في الأرض إلى بطنه . ووثب عنه . وقال يامحمد ! قد علمت أن هذا عملك . فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه . ولك عليَّ لأُعمِّين على مَنْ ورائي [5] . وهذه كنانتي . فخذ سهماً منها . فإنك ستمر على إبلي وغلماني بمكان كذا وكذا . فخذ منها حاجتك . قال : « لاحاجة لي في إبلك » .

---

(١) أي غبار يشبه الدخان .

(٢) يعني لم يأخذا مني شيئاً .

(٣) أي رقعة من جلد .

(٤) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار رقم ٣٩٠٦ .

(٥) لأعمين على من ورائي : يعني لأخفين عمن ورائي ممن يطلبكم ، وألبِّس عليهم حتى لايتبعكم أحد .

وفي رواية أخرى لمسلم قال : فرجع لايلقى أحداً إلا قال : قد كُفيتم ماههنا فلا يلقى أحداً إلا رده ، قال : ووفى لنا [1] .

١٥ - وأخرجه ابن إسحاق من حديث الزهري بنفس إسناد الإمام البخاري وزاد في آخره : « حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله وفرغ من حنين والطائف خرجت ومعي الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة . قال : فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار . فجعلوا يقرعونني بالرماح . ويقولون إليك إليك . ماذا تريد ؟ قال : فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته ، والله لكأنّي أنظر إلى ساقه في غرزه كأنها جُمَّارة [2] .

قال : فرفعت يدي بالكتاب ، ثم قلت : يارسول الله هذا كتابك لي ، أنا سراقة ابن جعشم قال : فقال رسول الله ﷺ : يوم وفاء وبر ، ادنُهْ ، قال : فدنوت منه فأسلمت .

ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره ، إلا أني قلت : يارسول الله ، الضالة من الإبل تغشى حياضي ، وقد ملأتها لإبلي ، هل لي من أجر في أن أسقيها ؟ قال : نعم في كل ذات كبد حرَّى أجر ، قال : ثم رجعت إلى قومي ، فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي [3] .

وأخرج الإمام الطبراني من حديث أسماء نحو حديث الإمام البخاري وابن إسحاق .

---

(١) صحيح مسلم ، الزهد رقم ٧٥/ ٢٠٠٩ (ص ٢٣١٠ - ٢٣١١) .

(٢) الجمَّار هو لب النخل ولونه أبيض بحمرة .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٥ - ١١٦ .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : فيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح [١] .

هذا الحديث يشتمل على معجزة عظيمة وآية باهرة حيث دعا رسول الله ﷺ على ذلك الفارس فحصل له ما حصل .

وهـــذه حلقة من حلقات المعركة التي أثارها كفار قريش ضد النبي ﷺ فخسروا فيها ونجح في الخلاص منهم وممن سخَّروه لتعويق هجرته ، ولو أدركوا من البداية أنهم يحاربون الله تعالى لوفَّروا على أنفسهم الجهد والمال ، وإن هذا الانكسار والتغير الذي حصل لفارس من أقوى وأشجع فرسان العرب دليل واضح على أن معركة أعداء الإسلام مع الله تعالى بالدرجة الأولى ، لأنه سبحانه مع أوليائه بنصره وحمايته ولن يخذلهم إذا صدقوا معه .

١٦ - أخرج الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر ، وأبو بكر شيخ يعرف ونبي الله ﷺ شاب لايعرف . قال : فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : يا أبابكر من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل يهديني السبيل ، قال : فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق ، وإنما يعني سبيل الخير . فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم ، فقال : يارسول

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٥٣ - ٥٤ .

الله ، هذا فارس قد لحق بنا ، فالتفت نبي الله ﷺ فقال : اللهم اصرعه ، فصرعه الفرس ، ثم قامت تحمحم ، قال : يانبي الله مُرْني بما شئت . قال ، فقف مكانك ، لاتتركن أحداً يلحق بنا .

قال : فكان أول النهار جاهداً على نبي الله ﷺ وكان آخر النهار مسلحة له (١) .

١٧ - وقال الحافظ ابن كثير في سياق خبر سراقة بن مالك ولما رجع سراقة جعل لايلقى أحداً من الطلب إلا رده وقال : كفيتم هذا الوجه ، فلما ظهر أن رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة جعل سراقة يقص على الناس ما رأى وما شاهد من أمر النبي ﷺ وما كان من قضية جواده واشتهر هذا عنه . فخاف رؤساء قريش معرَّته ، وخشوا أن يكون ذلك سبباً لإسلام كثير منهم ، وكان سراقة أمير بني مُدْلج ورئيسهم ، فكتب أبو جهل - لعنه الله - إليهم :

بني مدلج إني أخافُ سفيهكم   سراقة مُستغو لنصر محمد
عليكم به ألاَّ يفرق جمعكم   فيصبح شتى بعد عزٍّ وسؤدد

قال : فقال سراقة بن مالك يجيب أبا جهل في قوله هذا :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً   لأمر جوادي إذ تَسوخ قوائمه

---

(١) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار ، رقم ٣٩١١ (٧/ ٢٤٩) ، وقوله « وأبو بكر شيخ يعرف» يبينه ما جاء في رواية الإمام أحمد عن أنس وفيها « وكان أبو بكر يختلف إلى الشام فكان يعرف » - مسند أحمد ٣/ ٢٨٧ - .

عجبت ولم تشكك بأن محمداً رسول وبرهان فمن ذا يقاومه
عليك فكفَّ القوم عنه فإنني إخالُ لنا يوماً ستبدو معالمه
بأمر تَوَدُّ النصر فيه فإنهم وإنَّ جميع الناس طرّاً [1] مسالمه[2]

وذكر الحافظ ابن حجر شعرسراقة هذا في ترجمته [3] .

في هذا الخبر نجد الفرق واضحا بين أبي جهل وسراقة بن مالك ، فسراقة لمَّا شاهد معجزة واحدة من معجزات النبي ﷺ دخل قلبَه الإسلام وصار من جنوده ، بينما نجد أبا جهل قد شاهد الكثير من المعجزات النبوية سواء منها ما كان معه أو مع غيره فلم يسلم وظل يقود العداء الشرس ضد النبي ﷺ ، وإن هذا لهو الفرق بين المتجرد من الهوى المنحرف ومن استحوذ الهوى المنحرف على قلبه ، فسراقة لم يحمل في قلبه بغض النبي ﷺ وإرادة حربه وعدائه ، بينما حمل أبو جهل بغضه ورفع لواء عدائه وحربه وامتلأ قلبه حسدا وضغنا عليه ، فلم تَعُد الآيات تؤثر على قلبه إلا بزيادة في الحقد وإرادة الشر .

١٨ - وذكر الحافظ ابن حجر رواية عن الحسن البصري : أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك « كيف بك إذا لبست سوارَيْ كسري ؟ » قال : فلما أُتيَ عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة فألبسه

---

(١) يعني كلهم .

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٨٤ .

(٣) الاصابة ٢/ ١٨ رقم ٣١١٥ .

وكان رجلاً أزبّ كثير شعر الساعدين فقال له : ارفع يديك وقل الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الأعرابي ، قال : وروى ذلك عنه ابن أخيه عبد الرحمن بن مالك بن جعشم [(١)] .

وهذه معجزة أخرى لرسول الله ﷺ حيث أخبر سراقة بأنه سيلبس سواري كسرى ، إذ لا يتصور من إنسان عادي وهو في قلة من أنصاره وقد خرج في خوف وخفية من قومه أن يخبر بزوال دولة الفرس على يد أنصاره وحصول سراقة على سواري كسرى ، فلا يمكن أن يكون هذا الخبر إلا بوحي من الله تعالى .

ويتم ما أخبر به رسول الله ﷺ ، وتزول دولة الفرس على يد الصحابة رضي الله عنهم ، وتصل غنائمهم إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فيدعو سراقة ويلبسه سواري كسرى .

* * *

– خبر الراعي ومعجزة لرسول الله ﷺ –

١٩ – أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث قيس بن النعمان قال : لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفيين مراً بعبد يرعى غنما فاستسقياه من اللبن فقال : ماعندي شاة تحلب غير أن ههنا عناقاً [(٢)] حملت أول الشتاء وقد أخدجت [(٣)] ومابقي لها لبن ، فقال : ادع بها ، فدعا بها فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت .

---

(١) الاصابة ٢/ ١٨ – ١٩ رقم ٣١١٥ .

(٢) العناق هي الأنثى من الماعز .

(٣) أي اسقطت مافي بطنها .

قال : وجاء أبو بكر رضي الله عنه بمجنّ فحلب فسقى أبا بكر ثم حلب فسقى الراعي ثم حلب فشرب ، فقال الراعي : بالله من أنت فوالله مارأيت مثلك قط ، قال : أوتُراك تكتم عليَّ حتى أُخبرك ؟ قال : نعم ، قال : فإني محمد رسول الله ، فقال : أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ ، قال : إنهم ليقولون ذلك ، قال : فأشهد أنك نبي وأشهد أن ماجئت به حق وأنه لايفعل مافعلت إلا نبي وأنا متبعك ، قال : إنك لاتستطيع ذلك يومك فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي [(١)] .

ورواه الحافظ البيهقي من طريق أبي عبد الله الحاكم بإسناده [(٢)] .

ورواه الحافظ البزار من حديث قيس بن النعمان قال : لما انطلق رسول الله ﷺ وأبوبكر متسخفيين نزلا بأبي معبد . . ثم ذكر خبراً يشبه هذا الخبر .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح [(٣)] .

وقوله : « نزلا بأبي معبد » لعله وهم من أحد الرواة لأن هذا الخبر مخالف في تفاصيله لأخبار أم معبد المشهورة السابقة ، ومن ذلك أن

---

(١) المستدرك ٣/ ٩ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٩٧ .

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٥٨ .

جميع أخبار أم معبد تدور على أنها هي صاحبة القصة وليس فيها أن أبا معبد لقي النبي ﷺ وخاطبه وأسلم على يديه في تلك الساعة ، فهذا الخبر مشبه لخبر الراعي وألفاظ الخبرين تكاد تكون واحدة .

هذا الخبر فيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ حيث مسح ضرع عناق لا لبن فيها ودعا الله تعالى فدرت بالحليب فشرب هو وصحبه والراعي .

وقد اعترف الراعي بأن هذا التسخير لايكون لبشر عادي ، وآمن فوراً بأن من تم على يديه ذلك نبي مرسل من الله تعالى بعد أن عرَّفه رسول الله ﷺ بنفسه ، وقد تم هذا الإقرار السريع من الراعي لتجرده من الهوى المنحرف ، بينما كان أصحاب الهوى المنحرف من المشركين يتهمون رسول الله ﷺ بالسحر كلما أجرى الله تعالى على يديه آية من الآيات .

وفي هذا الخبر وأخبار سابقة نجد أمثلة من تواضع النبي ﷺ حيث كان يحلب الشياه بنفسه ويقدم أصحابه بالسقي ويكون آخرهم .

٢٠ - أخرج عبد الله بن الإمام أحمد بإسناده عن فائد مولى عبادل قال : خرجت مع إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة فأرسل إبراهيم بن عبد الرحمن إلى ابن سعد حتى إذا كنا بالعَرْج [١] أتانا ابن سعد ، وسعدٌ الذي دل رسول الله ﷺ على طريق ركوبة [٢] فقال إبراهيم : أخبرني ماحدثك أبوك ؟ .

---

(١) هي قرية بين مكة والمدينة على أيام من المدينة .

(٢) هي ثنية عند العرج وهي الطريق الجبلي .

قال ابن سعد حدثني أبي أن رسول الله ﷺ أتاهم ومعه أبو بكر وكان لأبي بكر عندنا بنت مسترضعة وكان رسول الله ﷺ أراد الاختصار في الطريق إلى المدينة فقال له سعد : هذا الغائر [١] من ركوبة وبه لصَّان من أسلم يقال لهما المُهَانان فإن شئت أخذنا عليهما ، فقال رسول الله ﷺ : خُذْبنا عليهما ، قال سعد : فخرجنا حتى أشرفنا إذا أحدهما يقول لصاحبه : هذا اليماني [٢] ، فدعاهما رسول الله ﷺ فعرض عليهما الإسلام فأسلما ثم سألهما عن أسمائهما فقالا نحن المهانان ، فقال : بل المُكرمان ، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة [٣] .

في هذا الخبر أن رسول الله ﷺ فضَّل الطريق المختصر إلى المدينة لما تجاوز المراحل الأولى من الطريق ، مع أن الدليل ذكر له أن الطريق المختصر فيه خطر الهجوم عليهم من لصَّين مشهورين هناك ، وهذا دليل على شجاعته ﷺ وإقدامه على المخاطر عندما تكون فيها المصلحة ، وذلك من قوة توكله على الله تعالى .

وفيه اهتمامه ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى حيث اغتنم الفرصة فدعا اللصين المذكورين إلى الإسلام فأسلما ، وإن في إسلام هذين اللصين مع ما أَلِفاه من حياة البطش والسلب والنهب دليلاً على سرعة إقبال النفوس على اتباع الحق إذا وُجد من يمثله بصدق وإخلاص ، وتجردت نفس السامع من الهوى المنحرف .

---

(١) هو جبل قرب المدينة .

(٢) يعني القادم من جهة اليمن ، وكانوا يعبِّرون عن جهة الجنوب باليمن .

(٣) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٨٩ .

وإن في إسلام هذين اللصين تقريعا وتوبيخاً لكفار مكة الذين بقي عندهم رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الله تعالى فما لانت قلوبهم ولا استنارت بصائرهم ، حيث أصبح اللصوص المهانون المنبوذون أسرع منهم استجابة لنداء الحق وتأثراً بدعاته .

وإن في اهتمام الرسول الله ﷺ بتغيير اسمَي هذين اللصين من المهانَيْن إلى المكْرَمَيْن دليلاً على اهتمامه بسمعة المسلمين ومراعاته مشاعرهم إكراماً لهم ورفعاً من معنويتهم .

وإن في رفع معنوية الإنسان تقوية لشخصيته ودفعا له إلى الأمام ليبذل كل طاقته في سبيل الخير والصلاح .

٢١ - أخرج الإمام البخاري من حديث عروة بن الزبير : « أن رسول الله ﷺ لقيَ الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثياب بياض .

وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه ، حتى يردَّهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أوَوْا إلى بيتوتهم أوفَى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم [(١)] لأمر ينظر إليه ، فبصُرَ رسول الله ﷺ وأصحابه مبيَّضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يامعاشر العرب ، هذا جَدُّكم الذي تنتظرون [(٢)] .

---

(١) أي حصن من حصونهم .

(٢) أي هذا حظكم وصاحبكم .

فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يُحيِّي أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلَّل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك .

فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسَّس المسجد الذي أُسِّس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ﷺ . ثم ركب راحلته ، فسار يمشي معه الناس ، حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة ، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربْداً للتمر (١) لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل .

ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً ، فقالا : لا ، بل نهبه لك يارسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً ، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبنَ في بُنْيانه ويقول - وهو ينقل اللبن : -

هذا الحمالُ لاحمال خَيبرْ (٢) هـــذا أبرُّ ربنا وأطهر

---

(١) يعني المكان الذي يجفف فيه التمر .

(٢) يعني هذا المحمول وهو لبن البناء هو الحمال المعتبر لأنه يراد به ثواب الآخرة ، بخلاف حمال خيبر من التمر ونحوه فإنه يراد به منفعة الدنيا .

ويقول : اللــهم إن الأجرَ أجرُ الآخرة   فارحم الأنصارَ والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يُسَمَّ لي [1] .

في هذا الحديث بيان خبر وصول النبي ﷺ إلى المدينة ، وهو يصور مدى حب الأنصار له حيث كانوا يخرجون كل يوم لانتظاره إلى أن يمسهم حر الشمس .

وقد استقبلوا رسول الله ﷺ استقبالاً كبيراً وكان عدد الذين استقبلوه خمسمائة[2] .

ويصور البراء بن عازب رضي الله عنه الموقف بقوله : « ثم قدم رسول الله ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله [3] .

وصار الناس يهتفون « جاء نبي الله جاء نبي الله »[4] .

ومما يشتمل عليه هذا الحديث بيان تواضع النبي ﷺ العظيم حيث لم يكن في لباسه مختلفا عن أبي بكر رضي الله عنه ، حتى أصبح الذين لا يعرفونه يحَيُّون أبا بكر يظنون أنه رسول الله ﷺ .

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يظهر بهيئة متميزة ، ولو فعل ذلك لم

---

(١) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار ، رقم ٣٩٠٦ (٧/ ٢٣٩) .

(٢) فتح الباري ٧/ ٢٥١ .

(٣) صحيح البخاري رقم ٣٩٢٤ (٧/ ٢٦٠) .

(٤) صحيح البخاري رقم ٣٩١١ (٧/ ٢٥٠) .

يـوجّـه إليه نـقد لكون الرؤساء عادة يُعرفون بتميزهم ، ولكن رسول الله ﷺ الذي جعله الله تعالى هاديا وقدوة في الخير لم يصنع شيئاً من ذلك تواضعا لله جل وعلا ، وليكون أسوة لأمته في هذا الخلق النبيل .

ومما يشتمل عليه هذا الحديث من المواقف ما كان من رسول الله ﷺ من الاهتمام ببناء المساجد والإسراع في ذلك فقد بقي في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة فقط ، فأسس في حيهم مسجد قباء الذي ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ **لمسجد أسِّسَ على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه** ﴾[1] .

ثم لما تحول رسول الله ﷺ إلى داخل المدينة قام بتأسيس المسجد النبوي فور وصوله ، وهذا يدلنا على أهمية بناء المساجد وأنها المَعْلَم الأول من معالم الإسلام .

ولقد كان رسول الله ﷺ مشاركاً لأصحابه في بناء المسجد ينقل معهم اللَّبن حتى قام المسجد واكتمل بناؤه ، وكان في الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا يفدونه بأرواحهم مايكفي ويغني ، ولكنه ﷺ كان حريصاً على السبق إلى الأعمال الصالحة ، والمنافسة عليها ، فما كان ليفرِّط بتلك المناسبة الجليلة ، ولقد ضرب بذلك مثلاً عالياً في القدوة الحسنة ، ليسير على دربه المسلمون وخاصة أصحاب المسئولية منهم لأنهم ممن يقتدى بهم .

ولقد كان إسهام النبي ﷺ في بناء المسجد دافعاً قوياً للصحابة

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٨ .

ليواصلوا العمل ، كما جاء في قول أحدهم :

لئـن قعدنـا والـنبي يعمل ذاك إذاً للْـعمـل المـضلَّل

ولقد كانوا في غاية النشاط والحماس وهم يبنون المسجد ، يصور ذلك قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

لايستوي من يعمر المساجدا يـدأب فيهـا قائما وقـاعدا

ومن يُرى عن التراب حائدا [١]

وممن أُثر عنهم التنافس في هذا العمل الصالح عمار بن ياسر رضي الله عنهما ، كما أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المسجد فجعلنا ننقل لبنة لبنة ، وكان عمار ينقل لبنتين لبنتين ، فَتَتَّرب رأسه ، قال : فحدثني أصحابي ولم أسمعه من رسول الله ﷺ أنه جعل ينفض رأسه ويقول : ويحك يابن سمية تقتلك الفئة الباغية » [٢] .

وهذه الجملة رواها الإمام مسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » [٣] .

وهذا من دلائل النبوة فقد قُتل عمار في الفتنة التي كانت في عهد علي رضي الله عنه .

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٤٧ .

(٢) مسند أحمد ٣/ ٥ .

(٣) صحيح مسلم ، الفتن ، رقم ٢٩١٦ (٤/ ٢٢٣٦) .

وهكذا وصل رسـول الله ﷺ إلى المدينة بعـد هذه الرحلة الشـاقـة المحفوفة بالمخاطر .

وقـد يقول قائـل : لمـاذا يتـعرض رسول الله ﷺ لـهذه المخـاطر والمشاقِّ والمواقـف المخيفة والله قـادر عـلى أن يحمله إلى المدينة في لمح البصر ؟! .

فيقال : إن الله تعالى قادر – وهو القادر على كل شيء – أن يحمل رسوله ﷺ على البراق الذي حمله ليلة الإسراء ، وعلى مـاهو أعظم وأسرع من ذلك ، ولكن الله تعالى جعل نبيه ﷺ قـدوة عُظْمَى للناس ، فلذلك شرع له فعل الأسباب التي يفعلها الناس عادة .

ولو تمت الهجرة بخارق للعادة لم تحصل تلك المواقف العالية والعبر العظيمة التي استفدناها من هذه الهجرة المباركة ولم تكن تلك الدروس العالية التي تم بها إسلام من أسلم وظلت دروسا خالدة مع الزمن تُقَوِّي الإيمان وتبعث الثقة واليقين .

هذا وإن أحداث الهجرة من أولها إلى آخرها دليل على قوة توكل النبي ﷺ على ربه جل وعلا ، فحينما خرج من بيته وحده لم يتردد ولم يخامره شعور بالخوف من المشركين لقوة يقينه بأن الله تعالى معه بنصره وتأييده ، وحينما شعر أبو بكر بوجود المشركين حول الغار وبكى خوفا عـلى رسـول الله ﷺ أجابه ﷺ بلغـة الواثق بـربه ثقـة تامـة ، المتـوكل عـليه تـوكلا كاملا : يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ، لاتحزن إن الله معنا .

وحينما لحق بهما سراقة بن مالك كان ﷺ رابط الجأش ثابت الجنان ، وهذا مظهر من مظاهر التوكل التام على الله تعالى .

ولقد كانت أحداث الهجرة مثالا حياً في الجمع بين فعل الأسباب والتوكل على الله تعالى ، فقد قام النبي ﷺ بفعل الأسباب الممكنة حينما اختفى هو وصاحبه في الغار ، وكان مصاحبا للتوكل على الله تعالى من أول لحظة خطا فيها خطوات الهجرة إلى نهايتها .

وحينما أنهى رسول الله ﷺ فعل الأسباب الممكنة واستقر في الغار مع صاحبه تمحَّضَ التفكير للتوكل على الله تعالى لأنه قد انتهى دور الأسباب المصاحب للتوكل ، وأصبح النظر منصرفاً إلى التوكل على الله تعالى وحده فلذلك قال النبي ﷺ لأبي بكر : «ماظنك باثنين الله ثالثهما» ولم يذكر فعل أسباب أخرى حال كونهما في الغار .

وقد كانت مدة إقامة النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر سنة ، كما أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشر سنة يُوحَى إليه ، ثم أُمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين [1] .

* * *

---

(١) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار ، رقم ٣٩٠٢ .

٢٠ - هجرة علي بن أبي طالب

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى : وأقام علي بن أبي طالب عليه السلام بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس ، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ ، فنزل معه على كلثوم بن هدْم .

فكان علي بن أبي طالب - وإنما كانت إقامته بقباء ليلة أو ليلتين - يقول : كانت بقباء امرأة لا زوج لها مسلمة ، قال : فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابا ، فتخرج إليه فيعطيها شيئاً معه فتأخذه . قال : فاستربت بشأنه ، فقلت لها : يا أمَةَ الله ، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ماهو ، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟ قالت : هذا سهل بن حنيف بن واهب ، قد عرف أني امرأة لا أحد لي ، فإذا أمسى عَدَا على أوثان قومه فكسرها ، ثم جاءني بها ، فقال : احتطبي بهذا ، فكان علي رضي الله عنه يأثرُ ذلك من أمر سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق .

قال ابن إسحاق : وحدثني هذا من حديث علي رضي الله عنه ، هندُ بن سعد بن سهل بن حنيف رضي الله عنه [1] .

في هذا الخبر مواقف إسلامية عالية :

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١١٩ - ١٢٠ .

الأول : في بقـاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه وحـده في مكة بعـد هجرة النبي ﷺ وقـد هاجر قـبل ذلك المسلمـون ولـم يبق في مكة إلا مفـتون أو محبوس ، وهـذا دليل عـلى شجاعته وجـسارته حيث كان مـُعَرِّضا لنقمة زعماء قريش منـه ، ثـم في سـفره بعـد ذلـك وحـده إلى المدينة .

الثاني : في اهتمامه الدقيق بأمور المسلمين ، فقد لاحظ وضع تلك المرأة مع قلة إقامته في دار قومها فسألها عن أمرها ، وهذا التحري الدقيق والاهتمام البالغ من نتائج التربية النبوية العالية ، فأفراد المسلمين يعتبرون بالنسبة للمسلم كأفراد أسرته يغار عليهم ، ويسد حاجتهم ويصلح مافسد من أمرهم .

الثالث : موقف يذكر لسهل بن حنيف رضي الله عنه جمع فيه بين عـملين صـالحين : تحطيم الأصنام ، ودفع حطامـهـا لتلك المرأة الفـقـيـرة لتـتخـذ منه وقـوداً لنارها ، ومـا أعظم أن يجـمع المسلم بين جـهـاد أعـداء الإسلام وإزالة معالم الوثنية وبين الإحسان إلى المسلمين والبرِّ بهم .

الرابع : في بقاء علي رضي الله عنه على ذكـر هذا العـمل الصـالح عـقـودا من الزمن وثنائه على سـهل بن حنيف رضي الله عنه بعـد ذلك الزمن الطويل ، وإنما يقـدِّر العـمل الصـالح وفضـل أهل الفضـل من كـان عميق الشعور بذلك .

* * *

٢١ - مثل في التضحية

(هجرة صهيب بن سنان)

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه قال قال : رسول الله ﷺ : « رأيت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرة فإما أن تكون هَجَرا أو تكون يثرب » .

قال : وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وخرج معه أبو بكر رضي الله عنه ، وكنت قد هممت بالخروج معه فصدني فتيان قريش فجعلت ليلتي تلك أقوم ولا اقعد ، فقالوا : شغله الله عنكم ببطنه ولم أكن شاكيا ، فقاموا فلحقني منهم ناس بعدما سرت بريدا ليردوني ، فقلت لهم : هل لكم أن أعطيكم أواقيَ من ذهب وتخلون سبيلي وتفون لي : فتبعتهم إلى مكة فقلت لهم : احفروا تحت أسكفَّة الباب فإن تحتها الأواق ، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين ، وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قبل أن يتحول منها - يعني قباء - فلما رأني قال : يا أبا يحيى ربح البيع ، ثلاثاً ، فقلت : يارسول الله ماسبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام.

قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي [(١)] .

وأخرجه الإمام أحمد من حديث أبي عثمان النهدي ، وفيه أن كفار

---

(١) المستدرك ٣/ ٤٠٠ .

قريش قالوا : أتيتنا صعلوكا حقيرا ثم أصبت بين أظهرنا المال وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج أنت ومالك ؟ والله لايكون ذلك ، قال : فقال صهيب : أرأيت إن جعلت لكم مالي أتخلون أنتم سبيلي ؟ قال فقالوا : نعم فخلع لهم ماله ، قال : فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب [1] .

وأخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث عكرمة قال : لما خرج صهيب مهاجرا اتبعه أهل مكة فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهما فقال : لا تصلون إليّ حتى أضع في كل رجل منكم سهما ، ثم أصير بعدُ إلى السيف فتعلمون أني رجل ، وقد خلفت بمكة قينتين فهما لكما .

قال (وحدثنا) حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس نحوه ، ونزلت على النبي ﷺ ﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله** ﴾ الآية فلما رآه النبي ﷺ قال : أبا يحيى ربح البيع قال : وتلا عليه الآية .

قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه [2] .

وقوله « فتعلمون أني رجل » يعني رجل الحرب ، وقد جاء في رواية ذكرها الحافظ ابن حجر « فقال : يامعشر قريش إني من أرماكم » [3] .

---

(١) فضائل الصحابة ٢/ ٨٢٨ ، وقال محققه الدكتور وصي الله : مرسل رجاله ثقات .

(٢) المستدرك ٣/ ٣٩٨ .

(٣) الاصابة ٢/ ١٨٨ رقم ٤١٠٤ .

في هذا الأثر موقف جليل لصهيب بن سنان رضي الله عنه حيث ضحى بماله وفدى به دينه ، وهو نموذج لعموم المهاجرين الذي تركوا أموالهم التي لايمكن نقلها كالبيوت وبعض أموالهم الأخرى التي غلبهم عليها الكفار ، كما تركوا مصالحهم التجارية حيث كان أهل مكة يتمتعون برحلتي الشتاء والصيف لليمن والشام ووفادة العرب على مكة .

لقد هاجروا وتركوا مصالحهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في الآخرة .

ولقد امتدح الله تعالى صهيبا وأمثاله بقوله تعالى ﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد** ﴾ [1] .

وموقف جهادي رائع لصهيب ، حيث أعلن الحرب ضد الكفار وهو وحده وهم جميع ، وقد خضعوا له وتركوه يهاجر إبقاء على أنفسهم ، ورغبة في الحصول على ماله الذي دلهم عليه وتنازل عنه لهم .

وهذا دليل على أن الكفار ينظرون أولا وقبل كل شيء إلى مصالحهم الخاصة ، من وقاية أنفسهم وحصولهم على أكبر قدر ممكن من متاع الدنيا ، أما النظر إلى المبادئ المقدسة عندهم فهو أمر ثانوي ، بخلاف المسلمين الذين يعتبرون الإسلام هو المطلب الأول والقضية الكبرى كما فعل صهيب وغيره من الصحابة رضي الله عنهم ، وهذا هو

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٧ .

أحد أسرار انتصار المسلمين الساحق على الكفار رغم ضعف المسلمين الواضح من الناحية المادية .

وإلى جانب ما في هذا الأثر من موقف جليل لصهيب رضي الله عنه فإن فيه معجزة للنبي ﷺ حيث قال لصهيب : يا أبا يحيى ربح البيع ، فأخبر عن أمر غيبي ، وقد عبر عن هذه المعجزة صهيب بقوله : يارسول الله ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام .

ونجد في عبارة النبي ﷺ معاني سامية من مواساة المنكوبين ، ورفع معنوية المقهورين ، فإن أولئك الرعيل المختار لو أُعطي أحدهم أضعاف أضعاف ما فقد من الدنيا لم يَزِنْ عنده البشارة برضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

تم بحمد الله هذا الجزء ويليه الجزء

الرابع وبه ابتداء موضوعات

العهد المدني

فهرس الموضوعات